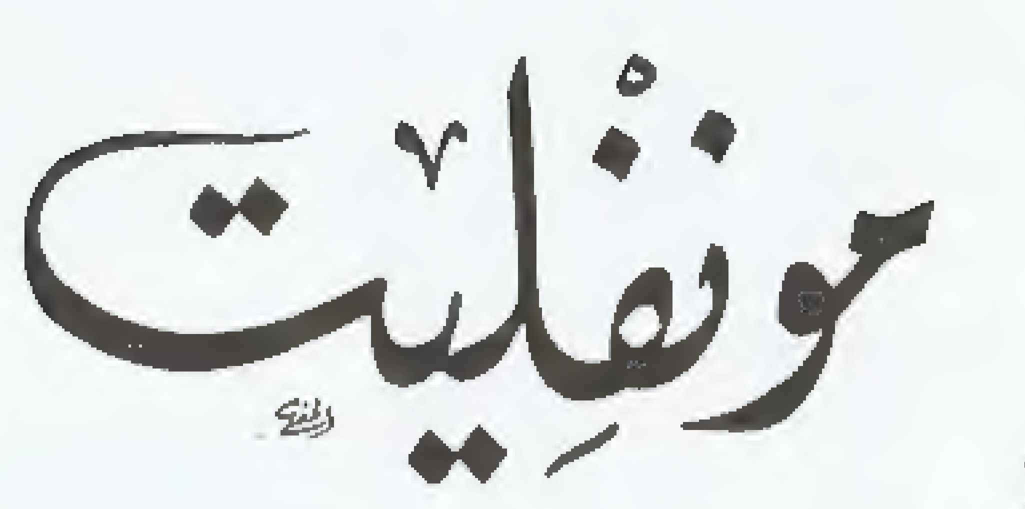


سنا
الروايات المشهورة
مونفليت
عرب كوميكس
ARAB COMICS
www.arabcomics.net
Arabcomics.net











تأليف: ج. ميد فوكنر
إعداد: بهيّة كرَم
رسُوم: محمّد نبيل عبد العزيز

مكتبة لبنان
بيروت

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٨٩ / ٨٨
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧-١٤٤٥-٤٧-٢

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

اَلفَصْلُ ٱلأَوَّلُ

قَرْيَةُ مُونْفِلِيت

تَقَعُ قَرْيَةُ مُونْفِلِيت عَلَى ٱلضِّفَّةِ ٱلغَرْبِيَّةِ لِنَهْرِ فليت ، عَلَى بُعْدِ نِصْفِ مِيلٍ مِنَ ٱلبَحْرِ . وَلَيْسَ ٱلنَّهْرُ سِوَى مَجْرًى مائِيٍّ ضَيِّقٍ يَأْخُذُ في ٱلاتِّساعِ ، بَعيدًا عَنِ ٱلقَرْيَةِ ، لِيَكُونَ بُحَيْرَةً واسِعَةً .

وَكُنْتُ في صِباي أَظُنُّ أَنَّ ٱلقَرْيَةَ سُمِّيَتْ بِاسْمِ مُونْفِلِيت لِأَنَّ ضَوْءَ ٱلقَمَرِ يَسْطَعُ مُتَأَلِّقًا عَلَى ٱلبُحَيْرَةِ ، ثُمَّ عَلِمْتُ فيما بَعْدُ أَنَّ اسْمَها ٱلحَقيقِيَّ هُوَ « مُوهُـونْفِلِيت » نِسْبَةً إِلى عائِلَةِ مُوهُون ٱلعَريقَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَقْطُنُ هٰذِهِ ٱلمِنْطَقَةَ ، وَحُرِّفَ ٱلِاسْمُ إِلى « مُونْفِلِيت » .

أَمّا أَنا فَأُدْعَى جُون تْرِنْشارد ، وَكُنْتُ أَبْلُغُ مِنَ ٱلعُمْرِ خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا عِنْدَما بَدَأَتْ هٰذِهِ ٱلقِصَّةُ . وَكُنْتُ أُقيمُ مَعَ خالَتي ٱلآنِسَةِ أَرْنُولد لِأَنّي يَتيمُ ٱلأَبَوَيْنِ .

تَبْدَأُ ٱلقِصَّةُ في شِتاءِ عامِ ١٧٥٧ م ، حينَ كُنْتُ أَقْرَأُ كِتابًا عَنْ عَلاءِ ٱلدّينِ وَٱلمِصْباحِ ٱلسِّحْرِيِّ ، وَكَيْفَ أَغْلَقَ ٱلسّاحِرُ عَلَيْهِ ٱلبابَ ، لِأَنَّ عَلاءَ ٱلدّينِ رَفَضَ أَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِ ٱلمِصْباحَ . ذَكَّرَتْني ٱلقِصَّةُ بِتِلْكَ ٱلأَحْلامِ ٱلمُزْعِجَةِ ٱلَّتي يَجِدُ فيها ٱلمَرْءُ نَفْسَهُ داخِلَ حُجْرَةٍ صَغيرَةٍ تَنْطَبِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا فَشَيْئًا .



تَوَقَّفْتُ عَنِ ٱلقِراءَةِ وَخَرَجْتُ إِلى ٱلشّارِعِ . وَلَمْ يَكُنِ ٱلظَّلامُ قَدْ خَيَّمَ بَعْدُ ، وَإِنْ كانَتِ ٱلشَّمْسُ قَدْ غَرَبَتْ . وَعَمَّ ٱلكَوْنَ سُكونٌ عَميقٌ ، لَمْ يَقْطَعْهُ سِوَى صَوْتِ طَرَقاتٍ خَفيفَةٍ يَأْتي مِنْ بَعيدٍ ، فَقَدْ كانَ راتْسي ، حارِسُ ٱلمَقابِرِ ، يَقومُ بِحَفْرِ اسْمِ أَحَدِ ٱلمَوْتَى عَلَى شاهِدِ قَبْرٍ .

كانَ راتْسي مُنْهَمِكًا في عَمَلِهِ ، وَلَمّا رَآني أُطِلُّ عَلَيْهِ مِنْ خِلالِ فُتْحَةٍ بِبابِ بَيْتِهِ ، ناداني قائِلًا : « أَهْلًا يا جُون ! اُدْخُلْ وَأَمْسِكْ لِيَ ٱلمِصْباحَ . »

داڤيد بْلُوك

السِّنُّ ١٥ عامًا ـ قُتِلَ بِرَصاصةٍ
أُطْلِقَتْ مِنَ السَّفِينةِ « إليكتور »
في ٢١ يونيه (حَزيران) سَنَةَ ١٧٥٧ م

رَأَيْتُهُ يَنْقُشُ فَوْقَ الشّاهِدِ صُورةً لِسَفِينَتَيْنِ يَتَقاتَلُ رِجالُهُما ، وَتَحْتَ الصُّورةِ نُقِشَتْ هٰذِهِ العِبارةُ :

كانَ الكُلُّ يَتَحَدَّثُ عَنْ داڤيد المِسْكينِ ـ الابْنِ الوَحيدِ لإِلْزِفير بْلُوك صاحِبِ نُزُلِ « وايْنَط » .

في ذٰلِكَ الوَقْتِ كانَ يَتِمُّ جَمْعُ ضَريبةٍ باهِظةٍ لِلْمَلِكِ عَنِ البَضائِعِ الوارِدةِ لِلْبِلادِ ، فَكَثُرَ المُهَرِّبونَ الَّذينَ كانُوا يَتَهَرَّبونَ مِنْ دَفْعِها . وَكانَتِ السُّفُنُ المُحَمَّلةُ بِالبَضائِعِ تُفْرِغُ حُمولَتَها في أَماكِنَ غَيْرِ مَطْروقةٍ عَلى الشَّواطِئِ ، وَمِنْها تُحْمَلُ البَضائِعُ في صَناديقَ وَبَراميلَ إلى مَخابِئَ داخِلَ البِلادِ . وَكانَ مُحَصِّلو الضَّرائِبِ الَّذينَ تُعَيِّنُهُمْ حُكومةُ المَلِكِ يَعْمَلونَ عَلى إِيقافِ عَمَلِيّاتِ التَّهْريبِ هٰذِهِ ، يُساعِدُهُمْ في ذٰلِكَ رِجالُ خَفَرِ السَّواحِلِ .

كانَ إِلْزِفير أَحَدَ المُهَرِّبينَ ، وَكانَتْ صُورةُ إِحْدَى السَّفِينَتَيْنِ المَنْقوشَتَيْنِ

عَلى القَبْرِ هِيَ صُورةَ سَفِينَتِهِ ، عَلى حِينَ كانَتِ الأُخْرى صُورةَ سَفِينةِ خَفَرِ السَّواحِلِ .

وَكانَ أَحَدُ أَثْرِياءِ القَرْيةِ وَيُدْعَى ماسْكيو قَدْ تَناوَلَتْهُ الإِشاعاتُ الَّتي تَقولُ إِنَّهُ هُوَ الَّذي كَشَفَ لِرِجالِ خَفَرِ السَّواحِلِ خُطَّةَ المُهَرِّبينَ ، وَإِنَّهُ كانَ مَعَ خَفَرِ السَّواحِلِ عَلى ظَهْرِ السَّفِينةِ حِينَ قُتِلَ داڤيد .

وَقَفَ راتْسي بَعيدًا يَتَأَمَّلُ عَمَلَهُ ثُمَّ قالَ : « كَمْ هُوَ مُحْزِنٌ أَنْ يُقْتَلَ صَبِيٌّ في مُقْتَبَلِ عُمْرِهِ . لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ ثَلاثةً مِنَ المُهَرِّبينَ في السِّجْنِ يَنْتَظِرُ إِعْدامُهُمْ يَوْمَ الاثْنَيْنِ المُقْبِلِ ؛ لِذٰلِكَ سَأُلَوِّنُ العَلَمَ بِاللَّوْنِ الأَحْمَرِ وَسَأَطْلي السَّفِينَتَيْنِ بِاللَّوْنِ الأَسْوَدِ . وَالآنَ هَيّا بِنا إلى النُّزُلِ لِنُواسِيَ إِلْزِفير ، فَهُوَ غارِقٌ في بَحْرٍ عَميقٍ مِنَ الحُزْنِ وَالأَسَى . »

قُلْتُ : « هَيّا . » رَغْمَ أَنَّني كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ خالَتي لا تُوافِقُ عَلى دُخولي نُزُلَ « وايْنَط » .

دَخَلْنا النُّزُلَ وَكانَتْ أَرْضُهُ مَفْروشةً بِالرَّمْلِ ، وَرُصَّتْ حَوْلَ جُدْرانِها كَراسٍ خَشَبِيّةٌ ، وَفي جانِبِهِ الأَقْصَى كانَتِ النّارُ المُشْتَعِلةُ في المِدْفَأَةِ تَبْعَثُ الضَّوْءَ الوَحيدَ في الحُجْرةِ .

جَلَسَ إِلْزِفير قُرْبَ المِدْفَأَةِ ، وَكانَ مُمْتَلِئَ الجِسْمِ قَوِيًّا . وَكانَتْ مَعْرِفَتي بِهِ قَليلةً ، وَكانَ الكَثيرونَ يَتَعَجَّبونَ مِنِ احْتِفاظِهِ بِإِدارةِ النُّزُلِ الَّذي لَمْ يَكُنْ

يُدِرُّ عَلَيْهِ رِبْحًا كافِيًا .

اِلْتَفَتَ إِلَيْنا إِلْزِقير بِغَضَبٍ ، وَانْتَهَرَ راتْسي قائِلًا : « لِماذا أَحْضَرْتَ هٰذا الصَّبِيَّ إِلى هُنا ؟ إِنَّهُ ما زالَ طِفْلًا . »

أَجابَ راتْسي : « جُون لَيْسَ طِفْلًا ، كَما أَنَّهُ في سِنِّ داقِيد ، وَقَدْ كانَ مَعي يُعاوِنُني في نَحْتِ شاهِدِ القَبْرِ . »

قالَ إِلْزِقير : « لا بَأْسَ . إِنَّ داقِيد يَرْقُدُ ٱلآنَ في سَلامٍ ، وَلٰكِنِ ٱلوَيْلُ كُلُّ ٱلوَيْلِ لِمَنْ قَتَلوهُ ؛ فَلَنْ يَعْرِفوا السَّلامَ بَعْدَ ٱلآنَ أَبَدًا . » وَكانَ دُونَ شَكٍّ يَعْني بِذٰلِكَ السَّيِّدَ ماسْكيو .

اِنْهَمَكَ الرِّجالُ في ٱلحَديثِ . وَبَعْدَ بُرْهَةٍ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ إِلْزِقير قائِلًا : « لَقَدْ حانَ وَقْتُ رُجوعِكَ لِلْبَيْتِ يا بُنَيَّ . إِنَّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ يَهيمُ في الطُّرُقاتِ لَيْلًا ، وَلا أَحْسَبُكَ تُريدُ لُقْياهُ . »

كانَ ذُو اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ هٰذا ـ وَهوَ أَحَدُ رِجالِ أُسْرَةِ مُوهُون ـ مَدْفونًا في قَبْرٍ مُنْعَزِلٍ . وَكانَتْ أَقاويلُ النّاسِ بِشَأْنِهِ كَثيرةً ، فَقَدْ قيلَ إِنَّهُ لا يَسْتَقِرُّ في قَبْرِهِ ، بَلْ يَهيمُ في اللَّيْلِ بِاسْتِمْرارٍ بَحْثًا عَنْ ماسةٍ ثَمينةٍ فَقَدَها في حَياتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ يَجْرُؤُ عَلى ٱلاقْتِرابِ مِنَ ٱلقَبْرِ ، بَعْدَ ٱلغُروبِ ، غَيْرُ عَدَدٍ قَليلٍ مِمَّنْ لا يَخافونَ مُلاقاتِهِ . وَقَدْ وُجِدَ رَجُلٌ مَقْتولٌ وَمُلْقًى في الطَّريقِ صَبيحةَ يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ الصَّيْفِ ، وَاعْتَقَدَ الجَميعُ أَنَّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ هوَ الَّذي قَتَلَهُ .

كانَ ذُو اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ـ أَوْ جُون مُوهُون ـ رَئيسًا لِلسِّجْنِ الَّذي وُضِعَ فيهِ ٱلمَلِكُ تْشارْلِز . وَكانَ لَدَى ٱلمَلِكِ ماسةٌ كَبيرةٌ وَثَمينةٌ ، طَلَبَها مِنْهُ جُون مُوهُون نَظيرَ أَنْ يُسَهِّلَ لَهُ ٱلهَرَبَ . فَسَلَّمَهُ ٱلمَلِكُ ٱلماسةَ ، وَلٰكِنَّ جُون مُوهُون حَنِثَ بِوَعْدِهِ ، وَقَبَضَ عَلَيْهِ وَأَعادَهُ إِلى السِّجْنِ .

وَعِنْدَما ٱكْتُشِفَتِ ٱلمُؤامَرةُ ، صَدَرَ ٱلأَمْرُ بِسَجْنِ جُون مُوهُون ، إِلّا أَنَّهُ فَرَّ هارِبًا بَعْدَ أَنْ خَبَّأَ ٱلجَوْهَرةَ . وَيُقالُ إِنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ ٱلعُثورِ عَلَيْها فيما بَعْدُ ، أَوْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ ٱلوُصولِ إِلى ٱلمَكانِ الَّذي خَبَّأَها فيهِ ، وَلِذا كانَتْ رُوحُهُ تَهيمُ في ٱلأَرْضِ لَيْلًا سَعْيًا وَراءَ ٱلماسةِ ٱلمَفْقودةِ .

كُنْتُ كَثيرَ التَّرَدُّدِ عَلى فِناءِ ٱلمَقابِرِ ، حَيْثُ كانَ مَنْظَرُ ٱلبَحْرِ يَبْدو رائِعًا مِنْ هُناكَ . وَلٰكِنِّي كُنْتُ أَخافُ السَّيْرَ لَيْلًا في هٰذا ٱلمَكانِ . وَفي ساعةٍ مُتَأَخِّرةٍ في إِحْدى اللَّيالي ـ وَكُنْتُ أَسْتَدْعي الطَّبيبَ لِخالَتي ـ أَبْصَرْتُ ضَوْءًا يَتَحَرَّكُ بَيْنَ القُبورِ . إِنَّهُ لَمِنَ ٱلغَريبِ أَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ ٱلمَقْبَرةَ في مِثْلِ ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ !

اَلفَصْلُ الثَّاني

اَلمُوهُون يَتَحَرَّكونَ

مَضَتْ بِضْعةُ أيَّامٍ عَلى زيارَتي لِنُزُلِ الوايْنَط ساءَ خِلالَها الجَوُّ وَهَطَلَتْ أمْطارٌ غَزيرةٌ سَبَّبَتْ فَيضانَ النَّهْرِ ، وَغَمَرَتِ المِياهُ جُزْءًا كَبيرًا مِنَ القَرْيَةِ . وَلٰكِنَّ المِياهَ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ سُورِ المَقابِرِ ، فَبَقِيَتْ أرْضُ الفِناءِ جافَّةً . وَفي يَوْمِ أحَدٍ قُبَيْلَ الغُروبِ ، كُنْتُ أسيرُ مَعَ راتْسي ، فَرَأَيْنا تَجَنُّبًا لِلْخَوْضِ في الشَّوارِعِ المَغْمورةِ بالمِياهِ - أنْ نَعْبُرَ الفِناءَ لِلْوُصولِ إلى مَنْزِلَيْنا . وَالتَقَيْنا بالسَّيِّدِ غليني ، وَوَقَفْنا بِجانِبِ أحَدِ القُبورِ نَتَجاذَبُ مَعَهُ الحَديثَ . وَكانَ القَبْرُ مُرْتَفِعًا مِثْلَ مِنْضَدةٍ بَيْنَ شَجَرَتَيْنِ .

مالَتِ الشَّمْسُ نَحْوَ المَغيبِ ، وَظَهَرَتْ في السَّماءِ سُحُبٌ غَريبةُ الشَّكْلِ تَتَخَلَّلُها أشِعَّةُ الشَّمْسِ الحَمْراءُ ، فَشَعَرْتُ بِرَهْبةٍ جَعَلَتْني أُمْسِكُ بِذِراعِ راتْسي لِأُخْبِرَهُ بِعَزْمي عَلى العَوْدةِ لِلْمَنْزِلِ . وَفَجْأةً سَمِعْتُ صَوْتًا قَيَّدَني في مَكاني ، وكانَ صادِرًا مِنْ باطِنِ الأرْضِ ، فَصَرَخَتِ العَجوزُ تكر ، الَّتي كانَتْ تَقِفُ مَعَنا ، قائِلةً : « يا إلٰهي ! إنَّهُمُ المُوهُون ! المُوهُون يَتَحَرَّكونَ ! » ثُمَّ فَرَّتْ هارِبةً .

قالَ السَّيِّدُ غليني : « ما هٰذا الهُراءُ ؟ » وَبَقِيَ في مَكانِهِ كَأنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ ، وَعَلَّلَ سَبَبَ الصَّوْتِ بِوُجودِ قُبورٍ يَبْلُغُ اتِّساعُ بَعْضِها مِساحةَ غُرَفٍ

فَسيحةٍ تَضُمُّ رُفاتَ أُسْرةٍ بِأكْمَلِها ، وَقَدْ وَصَلَتْ إلَيْها المِياهُ وَسَبَّبَتْ تَحَرُّكَ صَناديقِ المَوْتَى الخَشَبيَّةِ فَأحْدَثَتْ هٰذِهِ الأصْواتَ الَّتي سَمِعْناها .

قالَ راتْسي : « قَدْ تَكونُ عَلى حَقٍّ يا سَيِّدُ غليني ، وَلٰكِنَّهُمْ يَقولونَ : « عِنْدَما يَتَحَرَّكُ المُوهُون فَهٰذا يَعْني المَوْتَ لِشَخْصٍ ما . »

قالَ غليني : « إذا تَحَرَّكَ المُوهُون فَقَدْ يَعْني ذٰلِكَ أشْياءَ عِدَّةً ، وَلٰكِنَّهُمْ في هٰذِهِ المَرَّةِ لَمْ يَتَحَرَّكوا ، بَلْ حَرَّكَتْهُمُ المِياهُ . »

وَعُدْتُ لِلْمَنْزِلِ بِسُرْعةٍ ، وَكُنْتُ أُفَكِّرُ أثْناءَ الطَّريقِ في جُون مُوهُون ، أوْ ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ ، وَفي الماسةِ الَّتي خَبَّأها . رُبَّما خَبَّأها في قَبْرِهِ ، وَرُبَّما كانَ لا يَزالُ يَبْحَثُ عَنْها ، لِذٰلِكَ فَإنَّهُ كُلَّما جَنَّ اللَّيْلُ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ باحِثًا عَنِ الماسةِ الَّتي مِنْ أجْلِها باعَ شَرَفَهُ !

وَكُلَّما سَيْطَرَتْ عَلَيَّ هٰذِهِ الأفْكارُ أسْرَعَتْ خُطايَ . تُرى هَلْ كانَ تَجْوالُهُ مَقْصورًا عَلى المَقابِرِ ، أمِ امْتَدَّ إلى الطُّرُقِ وَالحاراتِ ؟ ثُمَّ تَذَكَّرْتُ الرَّجُلَ الَّذي وُجِدَ قَتيلًا !

في اليَوْمِ التّالي - يَوْمِ الاثْنَيْنِ - عَزَمْتُ عَلى زيارةِ المَقْبَرةِ ثانِيةً لِأتَأكَّدَ : هَلْ يَتَحَرَّكُ المُوهُون فِعْلًا ؟ وَقَرَّرْتُ أنْ أذْهَبَ قَبْلَ الغُروبِ بِقَليلٍ ، أيْ قَبْلَ أنْ تَكْسُوَ الحُمْرةُ السَّماءَ وَتَتَراكَمَ الظِّلالُ فَتَصْعُبَ الرُّؤْيةُ خِلالَها .

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى القَبْرِ المُرْتَفِعِ وَجَدْتُ راتْسي وَإلْزِفير هُناكَ . وَكانَ

راتْسي يَضَعُ أُذُنَهُ على ٱلقَبْرِ مُنْصِتًا . تُرى ماذا كانَ يَسْمَعُ ؟ وَبَدَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ ٱلغَضَبِ حِينَ رَآني ، فَهَمَمْتُ بِٱلرُّجوعِ وَلٰكِنَّهُ قالَ : « جُون ! ماذا تَفْعَلُ هُنا في هٰذا ٱلوَقْتِ ٱلمُتَأَخِّرِ ؟ »

قُلْتُ : « أَتَيْتُ لِأَسْتَطْلِعَ أَخْبارَ ٱلمَوْهُون . »

رَدَّ راتْسي قائِلًا : « لَيْسَ لَدَيَّ ما أُخْبِرُكَ بِهِ ، وَأَنا لا أَعْتَقِدُ في مِثْلِ هٰذِهِ ٱلخُزَعْبِلاتِ . لَقَدْ جَرَفَتِ ٱلمِياهُ ٱلتُّرْبَةَ مِنْ تَحْتِ ٱلحِجارةِ ، وَيَجِبُ أَنْ أُعيدَ ٱلأُمورَ لِنِصابِها . هَلَّا تَكَرَّمْتَ وَمَرَرْتَ بِمَنْزِلي لِتُخْبِرَهُمْ بِأَنِّي سَأَتَأَخَّرُ هٰذِهِ ٱللَّيْلَةَ ، لِأَنِّي مُضْطَرٌّ أَنْ أَقومَ ٱلآنَ بِهٰذا ٱلعَمَلِ . »

أَيْقَنْتُ أَنَّهُ يُريدُ إِبْعادي عَنْ تِلْكَ ٱلمِنْطَقةِ ، فَذَهَبْتُ لِمَنْزِلِهِ ، كَما طَلَبَ مِنِّي . وَعِنْدَما تَرَكْتُ بابَهُ رَأَيْتُهُ مُقْبِلًا عَبْرَ ٱلطَّريقِ ، وَضَحِكَ عِنْدَما رَآني .

ٱلفَصْلُ ٱلثّالِثُ

تَحْتَ ٱلأَرْضِ

كُنْتُ مَشْغوفًا بِٱلجُلوسِ فَوْقَ ذٰلِكَ ٱلقَبْرِ ٱلمِنْضَدِيِّ ٱلعالي حَيْثُ يُمْكِنُني أَنْ أَرى ٱلبَحْرَ وَأَرْقُبَ ٱلسُّفُنَ . كانَ يَبْدو مِنْ كَثْرةِ آثارِ ٱلأَقْدامِ فَوْقَ ٱلطَّريقِ ٱلمُؤَدِّي لِلْبَحْرِ أَنَّ هٰذِهِ ٱلبُقْعةَ مُحَبَّبةٌ لِغَيْري أَيْضًا . وَكُنْتُ قَدِ ٱنْقَطَعْتُ عَنْ زِيارةِ تِلْكَ ٱلمِنْطَقةِ عِدَّةَ أَسابيعَ بَعْدَ مُقابَلَتي لِراتْسي وَٱلزِّقْيرِ هُناكَ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْها .

وَفي أَحَدِ ٱلأَيّامِ جَلَسْتُ في مَكاني ٱلمُفَضَّلِ أَتَطَلَّعُ إِلى ٱلبَحْرِ ، وَٱسْتَمْتِعُ بِدِفْءِ ٱلشَّمْسِ ، وَٱلهُدوءِ ٱلَّذي شَمَلَ ٱلكَوْنَ وَلَمْ يَتَخَلَّلْهُ سِوى صَوْتِ جورْج ٱلعَجوزِ يَشْدو أَثْناءَ عَمَلِهِ عَلى سَفْحِ ٱلتَّلِّ .

وَبِرَغْمِ شِدَّةِ ٱلرِّياحِ كانَ ٱلجَوُّ صَحْوًا مُنْذُ هُطولِ ٱلأَمْطارِ ٱلغَزيرةِ ٱلَّتي حَدَّثْتُكُمْ عَنْها ، مِمّا ساعَدَ عَلى أَنْ تَجِفَّ ٱلأَرْضُ ، وَأَنْ تَظْهَرَ تَشَقُّقاتٌ كَثيرةٌ ، بَدا ٱلمَكانُ مَعَها وَكَأَنَّهُ قِدْرٌ فَخّارِيَّةٌ رَديئَةُ ٱلصُّنْعِ . كَذٰلِكَ وَقَعَتِ ٱنْخِسافاتٌ في ٱلأَرْضِ في بَعْضِ ٱلأَماكِنِ تَخَلَّفَتْ عَنْها حُفَرٌ وَتَجاويفُ .

عِنْدَما بَلَغَتِ ٱلسّاعةُ ٱلرّابِعةَ فَكَّرْتُ في ٱلعَوْدةِ إِلى ٱلبَيْتِ ، وَلٰكِنّي سَمِعْتُ صَوْتًا صادِرًا مِنْ تَحْتي ـ مِنَ ٱلقَبْرِ ٱلَّذي كُنْتُ أَجْلِسُ فَوْقَهُ ـ وَرَأَيْتُ ٱلأَتْرِبةَ تَنْهارُ

مِنْ تَحْتِ ٱلحِجارةِ تاركةً فَجْوةً كَبيرةً تَتَّسِعُ لِدُخولِ شَخْصٍ زاحِفًا على قَدَمَيْهِ وَيدَيْهِ .

وَكَأَيِّ غُلامٍ في مِثْلِ سِنّي تَغَلَّبَ عَلَيْهِ ٱلفُضولُ وَحُبُّ ٱلاسْتِطْلاعِ وَٱلكَشْفِ ، قَفَزْتُ مِنْ فَوْقِ ٱلمَقْبَرةِ ، وَمَدَدْتُ قَدَمَيَّ داخِلَ ٱلحُفْرةِ ، فَإذا بي أَسْقُطُ فَوْقَ تُرْبةٍ هَشَّةٍ ، وَوَجَدْتُني أَقِفُ مُنْتَصِبًا تَحْتَ ٱلقَبْرِ .

كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هُناكَ حُجْرةً تَحْتَ ٱلقَبْرِ انْهارَ سَقْفُها فَأَحْدَثَ ٱلفَجْوةَ الَّتي رَأَيْتُها . وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما أَدْرَكْتُ خَطَئي ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَمامي سِرْدابًا طَويلًا قَليلَ ٱلانْحِدارِ . وَطَرِبْتُ لِأَنِّي شَعَرْتُ أَنَّني قَدْ وَجَدْتُ مَخْبَأَ ٱلماسةِ . وَرُحْتُ أَحْلُمُ وَأَتَخَيَّلُ مَدى سَعادَتي وَثَرائي في ٱلمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ أَنْ أَفوزَ بِٱلماسةِ . وَأَدْهَشَني ما وَجَدْتُ عَلَيْهِ حالَ السِّرْدابِ مِنْ نَظافةٍ وَحُسْنِ تَهْوِيةٍ ، وَآثارُ ٱلأَقْدامِ ٱلكَثيرةُ الَّتي انْطَبَعَتْ على تُرْبةِ السِّرْدابِ الطَّرِيَّةِ .

مَشَيْتُ في السِّرْدابِ مادًّا ذِراعَيَّ أَمامي حَتّى لا أَصْطَدِمَ في سَيْري بِشَيْءٍ . وَأَخَذَ الضَّوْءُ يَضْعُفُ شَيْئًا فَشَيْئًا كُلَّما تَقَدَّمْتُ ، حَتّى لَمْ أَعُدْ أَرى غَيْرَ قَبَسٍ خافِتٍ مِنَ النّورِ يَنْبَعِثُ خَلْفي مِنَ ٱلحُفْرةِ الَّتي دَخَلْتُ مِنْها . أَمّا أَمامي فَكانَ الظَّلامُ دامِسًا ، مِمّا جَعَلَني أَشْعُرُ بِٱلخَوْفِ ؛ لِذا خَرَجْتُ بِسُرْعةٍ إلى ٱلخَلاءِ .

ثُمَّ عُدْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ إلى مَنْزِلِ خالَتي جَرْيًا ، فَقَدْ كانَ وَقْتُ ٱلعَشاءِ قَدْ حانَ . وَعَزَمْتُ في قَرارةِ نَفْسي أَنْ أَعودَ لِزِيارةِ ذٰلِكَ السِّرْدابِ وَمَعي شَمْعةٌ تُنيرُ لي الطَّريقَ .

الفَصْلُ الرّابِعُ

مَخْبَأُ ٱلمُهَرِّبينَ

غَضِبَتْ خالَتي لِتَأَخُّري ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَنْطِقْ بِكَلِمةٍ أَثْناءَ ٱلعَشاءِ وَلَمْ أُخْبِرْها بِشَيْءٍ عَنِ اكْتِشافي .

بَعْدَ ٱلعَشاءِ هَبَّتْ واقِفةً وَقالَتْ : « جون ! لَقَدْ تَكَرَّرَتْ عَوْدَتُكَ مُتَأَخِّرًا في ٱلمَساءِ ، وَهٰذا لا يَجوزُ لِمَنْ هُوَ في سِنِّكَ ؛ لِذا لَنْ تَخْطُوَ خارِجَ عَتَبةِ ٱلمَنْزِلِ بَعْدَ غُروبِ الشَّمْسِ في ٱلمُسْتَقْبَلِ . إنَّ ٱلفِراشَ لِأَمْثالِكَ هُوَ ٱلمَكانُ ٱلمُلائِمُ في اللَّيْلِ . وَٱلآنَ هَيّا لِأَقْرَأَ لَكَ . »

جَلَسْتُ وَأَخَذَتْ تَقْرَأُ عَنْ تَصَرُّفاتِ أَطْفالٍ مِثالِيِّينَ وَعَنْ حُسْنِ ٱلخُلُقِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلقِيَمِ . وَكُنْتُ في شُغْلٍ شاغِلٍ عَمّا تَقولُ : كُنْتُ أُفَكِّرُ في ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ ، وَفي ٱلماسةِ وَفي السِّرْدابِ . وَقُمْتُ وَحَيَّيْتُ خالَتي ثُمَّ ذَهَبْتُ لِلْفِراشِ ، وَكانَتْ تِلْكَ آخِرَ مَرَّةٍ أَنامُ فيها على ذٰلِكَ ٱلفِراشِ .

اسْتَلْقَيْتُ على سَريري دونَ أَنْ أَخْلَعَ مَلابِسي ، وَبَدَأْتُ أَنْتَظِرُ . انْتَظَرْتُ طَويلًا ، حَتّى تَأَكَّدْتُ أَنَّ خالَتي غارِقةٌ في سُباتٍ عَميقٍ .

خَلَعْتُ حِذائي ، وَبِهُدوءٍ وَحَذَرٍ نَزَلْتُ الدَّرَجَ . وَأَخَذْتُ شَمْعةً ، ثُمَّ تَسَلَّلْتُ خارِجَ ٱلمَنْزِلِ . كانَ ٱلقَمَرُ ساطِعًا ، وَكانَ أَهْلُ ٱلقَرْيةِ كُلُّهُمْ نِيامًا ،



وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ ضَوْءٍ سِوَى ما كانَ يَنْبَعِثُ مِنْ نافِذَةٍ في النُّزُلِ .

سِرْتُ في الظَّلامِ وَاقْتَرَبْتُ بِحَذَرٍ مِنَ النَّافِذَةِ ٱلْمُضاءَةِ مُحاوِلاً أَنْ أَرَى ما يَدورُ بِالدَّاخِلِ . وَلَمْ أَرَ شَيْئًا ، وَلٰكِنِّي سَمِعْتُ أَصْواتًا كَثيرَةً . وَتَساءَلْتُ عَمَّا يَتَحَدَّثونَ في هٰذا ٱلْوَقْتِ ٱلْمُتَأَخِّرِ مِنَ اللَّيْلِ .

اِنْتابَني ٱلْخَوْفُ عِنْدَما وَصَلْتُ إِلى ٱلْمَقْبَرَةِ . كانَ ٱلْوَقْتُ وَٱلْمَكانُ مُناسِبَيْنِ لِظُهورِ الشَّبَحِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ، وَكُنْتُ أَتَوَقَّعُ رُؤْيَتَهُ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى ، وَلٰكِنَّ الظِّلالَ ٱلْمُحيطَةَ بِالْمَكانِ ظَلَّتْ ساكِنَةً مِنْ حَوْلي ، وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى صَوْتِ وَقْعِ قَدَمي عَلى ٱلْحَشائِشِ .

نَظَرْتُ إِلى ٱلْفَجْوَةِ وَوَقَفْتُ حائِرًا : هَلْ أَسْتَمِرُّ في بَحْثي أَمْ أَعودُ ؟ وَبَيْنَما أَنا كَذٰلِكَ ، أَبْصَرْتُ عِنْدَ الشَّاطِئِ قارِبًا ، وَعَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ ذٰلِكَ ٱلقارِبِ يَرْسو في ٱلْخَليجِ ، وَفي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ كَهٰذا . ثُمَّ أَبْصَرْتُ نورًا أَزْرَقَ يَنْبَعِثُ مِنَ ٱلْقارِبِ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ يَحْمِلُ ٱلْمُهَرِّبينَ . وَرَأَيْتُ بَحّارَتَهُ يُرْسِلونَ إِشارَةً لِشَخْصٍ ما ، أَوْ لِأَشْخاصٍ عَلى الشَّاطِئِ لِيُعْلِنوا اِسْتِعْدادَهُمْ ، فَأَلْقَيْتُ نَظْرَةً حَوْلي ثُمَّ دَخَلْتُ ٱلْفَجْوَةَ .

أَمْسَكْتُ الشَّمْعَةَ وَرَفَعْتُها أَمامي وَسِرْتُ في السِّرْدابِ غارِقًا في بَحْرٍ مِنَ ٱلأَحْلامِ . كُنْتُ أَحْلُمُ بِٱلماسَةِ وَما سَتُدِرُّهُ عَلَيَّ مِنْ ثَراءٍ ، وَما سَتَجْلُبُهُ مِنْ سَعادَةٍ . وَلاحَظْتُ عَلى ٱلأَرْضِ آثارَ أَقْدامٍ أَكْثَرَ مِمّا رَأَيْتُ في ٱلمَرَّةِ

الأولى ، فَخِفْتُ أَنْ يَكونَ أَحَدٌ غَيْري قَدْ سَبَقَني إلى مَكانِ ٱلماسةِ وَٱسْتَوْلى عَلَيْها . وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ٱلمَسافةَ لَمْ تَتَعَدَّ ٱلعِشْرينَ مِتْرًا فَإِنَّها بَدَتْ لي وَكَأَنَّها آلافُ ٱلأَمْتارِ . وَأَخيرًا وَصَلْتُ لِجِدارٍ حَجَرِيٍّ أُقيمَ كَحاجِزٍ بِعَرْضِ ٱلسِّرْدابِ . وَكانَ بِهِ فُتْحَةٌ تُؤَدّي إلى قاعةٍ خَلْفَهُ أَدْرَكْتُ أَنَّها مَكانُ دَفْنِ أُسْرةِ موهون .

دَخَلْتُ مِنَ ٱلفُتْحةِ فَوَجَدْتُني في قاعةٍ فَسيحةٍ تَزيدُ قَليلًا في اتِّساعِها عَنْ حُجْرةِ ٱلفَصْلِ في ٱلمَدْرَسةِ ، وَلٰكِنَّها تَقِلُّ ارْتِفاعًا عَنْها . فَقَدْ كانَ ٱلسَّقْفُ لا يَعْلو أَكْثَرَ مِنْ مِتْرَيْنِ وَنِصْفِ ٱلمِتْرِ عَنِ ٱلأَرْضِ ٱلمُغَطّاةِ بِالرَّمْلِ . وَفي نِهايةِ ٱلقاعةِ كانَ هُناكَ دَرَجٌ ، عَلى حينَ احْتَوَتْ جَوانِبُها عَلى صَناديقَ لِلْمَوْتى وُضِعَ كُلٌّ مِنْها في تَجْويفٍ خاصٍّ بِالجِدارِ . وَفي وَسَطِ ٱلحُجْرةِ رَأَيْتُ عَديدًا مِنَ ٱلبَراميلِ وَالصَّناديقِ ٱلمُخْتَلِفةِ ٱلحَجْمِ ، وَكُلُّها وَلا شَكَّ تَحْتَوي عَلى بَضائِعَ مُهَرَّبةٍ .

وَهٰكَذا بَدَلًا مِنِ اكْتِشافِ ٱلكَنْزِ الَّذي كُنْتُ أَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ اكْتَشَفْتُ مَخْبَأَ ٱلبَضائِعِ ٱلمُهَرَّبةِ داخِلَ مَقْبَرةِ ٱلموهون . حينَئِذٍ أَدْرَكْتُ أَنَّ ما سَمِعْناهُ عَصْرَ يَوْمِ ٱلأَحَدِ السّالِفِ لَمْ يَكُنْ صَوْتَ تَحَرُّكِ صَناديقِ ٱلمَوْتى تَحْتَ تَأْثيرِ ٱلمِياهِ فَقَطْ ، بَلْ كانَ تَحَرُّكَ صَناديقِ ٱلبِضاعةِ وَٱلبَراميلِ كَذٰلِكَ . وَكانَ حُضورُ راتْسي في ٱليَوْمِ التّالي - لا شَكَّ - لِلاطْمِئْنانِ عَلى أَنَّ أَحَدًا لَمْ يَكْتَشِفِ ٱلمَخْبَأَ . وَكانَتِ ٱلعَلامةُ الَّتي تَرَكَتْها ٱلمِياهُ عَلى ٱلجِدارِ تَصِلُ تَقْريبًا إلى

ارْتِفاعِ نِصْفِ مِتْرٍ مِنَ السَّقْفِ .

عاوَدَتْني أَحْلامي عَنِ ٱلماسةِ وَكَيْفَ أَصِلُ إِلَيْها ، فَتَفَحَّصْتُ صَناديقَ ٱلمَوْتى بِدِقَّةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلى أَكْثَرِها أَسْماءٌ وَبَدَأْتُ أَيْأَسُ مِنَ ٱلعُثورِ عَلى ضالَّتي ، وَهَمَمْتُ بِالعَوْدةِ ، وَلٰكِنّي سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامٍ مُقْبِلةٍ وَصَوْتَ أَشْخاصٍ يَتَحَدَّثونَ عَنْ بُعْدٍ ، فَتَمَلَّكَني ٱلهَلَعُ وَوَقَفْتُ مَكاني ثابِتًا بِضْعَ دَقائِقَ مَضَتْ كَأَنَّها ساعاتٌ . وَحَتّى يَوْمِنا هٰذا ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ مُرورِ أَعْوامٍ عَديدةٍ عَلى تِلْكَ اللَّحْظةِ ، ما زِلْتُ أَذْكُرُ كَيْفَ وَقَفْتُ في مَكاني وَكَأَنَّ الشَّلَلَ قَدْ أَصابَني ؛ فَكُنْتُ كَثَعْلَبٍ قُبِضَ عَلَيْهِ في جُحْرِهِ . وَلَطالَما سَمِعْتُ عَمّا كانَ يَفْعَلُهُ ٱلمُهَرِّبونَ بِمَنْ يَكْتَشِفُ أَسْرارَهُمْ أَوْ يَطَّلِعُ عَلى أَحْوالِهِمْ ، وَتَذَكَّرْتُ ذٰلِكَ ٱلمِسْكينَ الَّذي وُجِدَتْ جُثَّتُهُ في ٱلمَقْبَرةِ ، وَقيلَ إِنَّهُ الْتَقى بِذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ في اللَّيْلِ .

أَفَقْتُ مِنْ جُمودي عِنْدَما سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَقْفِزُ إلى السِّرْدابِ ، وَنَظَرْتُ حَوْلي أَبْحَثُ عَنْ مَفَرٍّ ، وَلٰكِنْ دونَ جَدْوى . ثُمَّ سَمِعْتُ الرَّجُلَ الَّذي في أَسْفَلِ ٱلفَجْوةِ يَتَحَدَّثُ إلى آخَرينَ في ٱلفِناءِ . وَفَجْأَةً لَمَحْتُ صُنْدوقَ مَيِّتٍ مُنْعَزِلًا عَنْ بَقِيَّةِ الصَّناديقِ في أَعْلى ٱلجِدارِ ، وَكانَ يَرْتَفِعُ حَوالَى مِتْرَيْنِ عَنِ ٱلأَرْضِ . وَسُرْعانَ ما تَسَلَّقْتُ إلى الصُّنْدوقِ وَاخْتَبَأْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلجِدارِ ، راقِدًا عَلى جَنْبي أُراقِبُ ضَوْءَ الشُّموعِ الَّتي كانَ يَحْمِلُها الرِّجالُ ، وَالَّذي أَخَذَ يَقْتَرِبُ مِنّي شَيْئًا فَشَيْئًا .

سَمِعْتُ راتسي يَقولُ : « سَأَسُدُّ ٱلفَجْوةَ بِحَيْثُ أَمْحو أَثَرَها تمامًا . »

فَقالَ آخَرُ : « حَذارِ أَنْ يَراكَ أَحَدٌ وَ أَنْتَ تَفْعَلُ ذٰلِكَ . »

وَكَثُرَ الرِّحالُ في ٱلغُرْفَةِ وَ قالَ أَحَدُهُمْ : « كُنْتُ في دُورْشِسْتَر مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ، وَ سَمِعْتُهُمْ يَقولونَ إِنَّهُمْ سَيَقومونَ بِإِعْدامِ ٱلمُهَرِّبينَ ٱلَّذينَ قُبِضَ عَلَيْهِمْ في الصَّيْفِ وَكانَ ماسْكيو أَكْثَرَ النّاسِ حَماسةً وَتَمَسُّكًا بِضَرورةِ ٱلإِعْدامِ . »

قالَ أَحَدُهُمْ : « آهٍ ! ماسْكيو ! كَمْ أَوَدُّ أَنْ أُلاقيَهُ وَ أَقْتُلَهُ ! »

وَقالَ آخَرُ : « بِوُدّي أَنْ أَلْقاهُ في لَيْلَةٍ مُظْلِمةٍ لِأُلَقِّنَهُ دَرْسًا لَنْ يَنْساهُ . »

اِرْتَفَعَ صَوْتُ إِلْزِفير قائِلًا : « كَلَّا ! كَلَّا ! ماسْكيو هذا مِن نَصيبي أنا . هَلْ نَسيتُم أَنَّهُ قَتَلَ ابْني ؟ دَعوهُ لي وَحْدي . »

كادَ يُغْمى عَلَيَّ نَتيجةَ فَسادِ ٱلهَواءِ مِنْ كَثْرةِ ٱلمَوْجودينَ ، وَكَثْرةِ الشُّموعِ ٱلمُضاءةِ ، بِٱلإِضافةِ إِلى الرَّوائِحِ ٱلكَريهةِ .

شَعَرْتُ بِأَلَمٍ حادٍّ في جَنْبي بِسَبَبِ رُقادِيَ الطَّويلِ عَلى جانِبٍ واحِدٍ . وَبَيْنَما أَنا أَنْقَلِبُ إِلى ٱلجَنْبِ ٱلآخَرِ ، سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يَذْكُرُ اسْمي قائِلًا

« ذٰلِكَ ٱلغُلامُ ابْنُ تْرِنْشارد كَثيرًا ما يَجْلِسُ عَلى شاهِدِ ٱلقَبْرِ ٱلعالي يَتَطَلَّعُ إِلى ٱلبَحْرِ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنَ ٱلقارِبِ جالِسًا هُناكَ وَقْتَ ٱلغُروبِ . وَرَغْمَ أَنّي

لَمْ أُمَيِّزْ مَلامِحَ وَجْهِهِ لِبُعْدِ ٱلمَسافةِ فَإِنّي عَرَفْتُهُ ، وَإِنّي لَأَخْشى أَنْ يَكونَ جاسوسًا عَلَيْنا يُدْلي بِمَعْلوماتِهِ لِماسْكيو . »

رَدَّ عَلَيْهِ شَخْصٌ آخَرُ مِنْ قَرْيةٍ قَريبةٍ قائِلًا : « أَنْتَ عَلى حَقٍّ يا هذا . كَثيرًا ما رَأَيْتُ ذٰلِكَ ٱلغُلامَ يَحومُ حَوْلَ مَنْزِلِ ماسْكيو- بَيْنَما كُنْتُ أُراقِبُ ٱلمَنْزِلَ - وَكانَ يَسيرُ وَهُوَ شارِدُ الذِّهْنِ كَمُحِبٍّ وَلْهانَ . »

كانَتْ تِلْكَ هِيَ ٱلحَقيقةَ ، فَكَثيرًا ما كُنْتُ أَسيرُ في لَيالي الصَّيْفِ في الطَّريقِ الصّاعِدِ إِلى التَّلِّ خَلْفَ مَنْزِلِ ماسْكيو ، وَذٰلِكَ لِسَبَبَيْنِ : أَوَّلُهُما أَنَّ الطَّريقَ نَفْسَهُ كانَ بَديعًا ، وَثانيهِما أَنَّهُ كانَتْ هُناكَ فُرْصةٌ أَنْ أَحْظى بِرُؤْيةِ غْريس ابْنةِ ماسْكيو . وَكُنْتُ أَجْلِسُ عَنْ بُعْدٍ وَأُراقِبُها وَهِيَ تَجوبُ أَنْحاءَ ٱلحَديقةِ . وَأَحْيانًا كُنْتُ أَمُرُّ بِٱلقُرْبِ مِنْ نافِذَتِها وَأَرْفَعُ يَدي لَها بِالتَّحِيَّةِ . وَذاتَ يَوْمٍ عَرَفْتُ أَنَّها مَريضةٌ ، فَتَرَكْتُ ٱلمَدْرَسةَ وَجَلَسْتُ طولَ ٱليَوْمِ فَوْقَ ٱلحاجِزِ أَنْظُرُ إِلى ٱلمَنْزِلِ ٱلَّذي رَقَدَتْ فيهِ طَريحةَ ٱلفِراشِ . نَعَمْ كُنْتُ أَتَرَدَّدُ كَثيرًا عَلى ذٰلِكَ ٱلمَكانِ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ لِأَنّي كُنْتُ جاسوسًا ، وَإِنَّما مِنْ أَجْلِ غْريس .

دَفَعَ راتْسي عَنّي التُّهْمةَ قائِلًا : « لا ، لا ! ابْنُ تْرِنْشارد غُلامٌ طَيِّبٌ ، وَكَثيرًا ما حَدَّثَني عَنْ شَغَفِهِ بِٱلجُلوسِ في هٰذِهِ ٱلبُقْعةِ لِأَنَّهُ يَرى مِنْها ٱلبَحْرَ كُلَّهُ . »

وَأَدْهَشَني إِلْزِفير بِقَوْلِهِ : « جون تْرِنْشارد غُلامٌ شُجاعٌ نَبيلٌ . كَمْ أَتَمَنّى لَوْ

كانَ ٱبْني ! إنَّهُ في نَفْسِ سِنِّ دافِيد ، وَأَنا واثِقٌ أَنَّهُ سَيُصْبِحُ بَحّارًا ماهِرًا عِنْدَما يَشِبُّ . »

وَأَشاعَتْ كَلِماتُهُ هذِهِ عَلى بَساطَتِها الطَّرَبَ وَالسُّرورَ في نَفْسي ، فَقَدْ كانَتْ بِها رَنَّةُ صِدْقٍ وَإِخْلاصٍ . وَكانَ لِلزَّقير عِنْدي مَكانَةُ حُبٍّ وَتَقْديرٍ ، وَكَمْ حَزِنْتُ عِنْدَما سَمِعْتُ نَبَأَ مَقْتَلِ ٱبْنِهِ .

شَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ جامِحَةٍ في أَنْ أَقْفِزَ وَأُناديَ : « هأَنَذا ! » وَلكِنّي تَمالَكْتُ نَفْسي ، وَبَقيتُ حَيْثُ أَنا دونَ حَراكٍ .

كانَ الرِّجالُ قَدْ فَرَغوا مِنْ إِحْضارِ الصَّناديقِ ، وَجَلَسوا يَتَجاذَبونَ أَطْرافَ ٱلْحَديثِ ، ثُمَّ بَدَأَ أَحَدُهُمْ يُغَنّي فَقالَ الزَّقير : « صَهٍ أَيُّها ٱلْغَبِيُّ ! إنَّ صَوْتَكَ كافٍ لِأَنْ يوقِظَ ٱلْقَرْيَةَ بِأَسْرِها . »

فَقالَ راتْسي : « لَوِ ٱسْتَيْقَظوا فَسَيَظُنّونَ أَنَّ ذا اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ يَسْتَنْجِدُ بِالْمَوْهون لِيُساعِدوهُ في ٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلماسَةِ . »

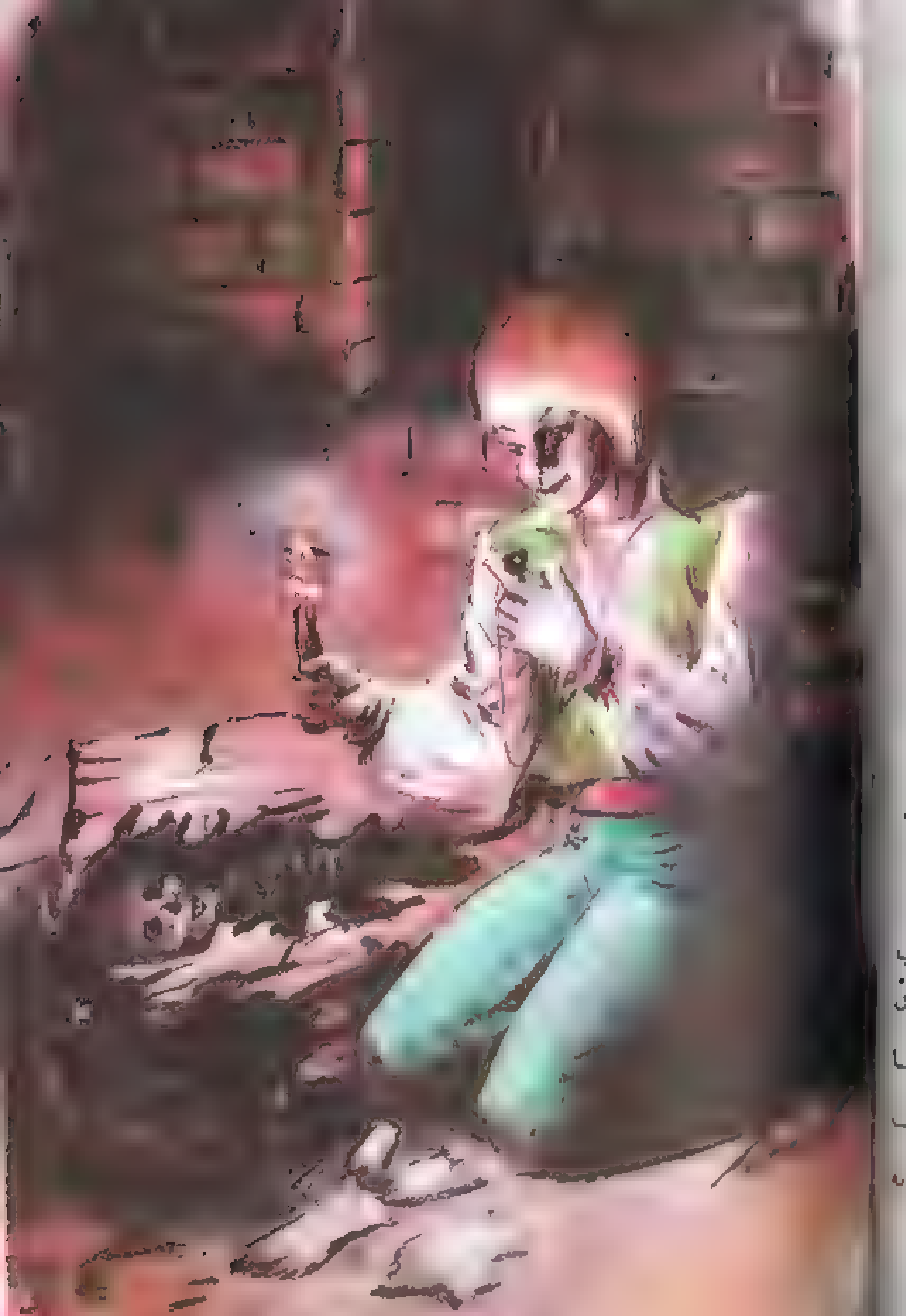
وَعَمَّ الصَّمْتُ بُرْهَةً ، وَكانَ واضِحًا أَنَّ الزَّقير هُوَ رَئيسُ تِلْكَ ٱلْجَماعَةِ . ثُمَّ قالَ أَحَدُهُمْ : « إنَّ الزَّقير عَلى حَقٍّ ، فَلَقَدْ تَأَخَّرَ ٱلْوَقْتُ ، فَلْنَرْجِعِ ٱلْآنَ إِلى ٱلقارِبِ . »

الفَصْلُ الخامِسُ

سَجينُ المَقْبَرَةِ

ذَهَبَ الرِّجالُ ، وَبَدَأَتْ أَضْواءُ الشُّموعِ الَّتي يَحْمِلونَها تَخْفُتُ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَكانَ وَقْعُ أَقْدامِهِمْ يَتَلاشى مَعَ ٱبْتِعادِهِمْ . وَصِرْتُ وَحْدي ، وَحْدي مَعَ ٱلْمَوْتى في صَناديقِهِمْ يُحيطونَ بي مِنْ كُلِّ جانِبٍ ! وَظَلَلْتُ أَسْمَعُ حَديثَ الرِّجالِ مُدَّةً طَويلَةً ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ بَعْضَهُمْ ما زالَ في آخِرِ السِّرْداب ، فَقَدْ كانوا يَتَشاوَرونَ في كَيْفِيَّةِ تَرْميمِ ٱلْفَجْوَةِ بِحَيْثُ لا يَكْتَشِفُها أَحَدٌ . وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى تَرْكِ مَكاني ما دُمْتُ أَسْمَعُ صَوْتًا .

وَلَمّا سَكَتَتِ ٱلْأَصْواتُ نَهَضْتُ ، وَقَرَّرْتُ ٱلْعَوْدَةَ لِلْمَنْزِلِ دونَ ٱسْتِكْمالِ بَحْثي ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِالتَّعَبِ وَٱشْتَقْتُ لِفِراشي . وَلكِنّي ٱكْتَشَفْتُ أَنَّ دُخولَ مَخْبَئي أَسْهَلُ مِنَ ٱلْخُروجِ مِنْهُ ، فَقَدْ كانَ الصُّنْدوقُ الَّذي ٱحْتَمَيْتُ وَراءَهُ بالِيًا هَشًّا ، فَلَمْ أَجْرُؤْ عَلى الصُّعودِ فَوْقَهُ . وَلا أَدْري ما الَّذي حَدَثَ بِالضَّبْطِ ، فَقَدْ وَجَدْتُ نَفْسي وَقَدْ سَقَطْتُ وَالشَّمْعَةَ عَلى ٱلْأَرْضِ ، فَمَدَدْتُ يَدي لِأَلْتَقِطَها ، وَأَمْسَكْتُ بِالصُّنْدوقِ لِأَسْتَنِدَ عَلَيْهِ ، فَإِذا بِيَدي تَخْتَرِقُهُ وَإِذا بي أَقَعُ ثانِيَةً عَلى ٱلْأَرْضِ وَسْطَ كَوْمَةٍ مِنَ التُّرابِ وَقِطَعِ ٱلْخَشَبِ ٱلْمُحَطَّمَةِ ، وَفي نَفْسِ ٱلْوَقْتِ أَطْبَقَتْ يَدي عَلى شَيْءٍ صُلْبٍ صَغيرٍ داخِلَ الصُّنْدوقِ دونَ أَنْ أَدْري كُنْهَهُ .



اِلتقطْتُ الشَّمعةَ وَعلى ضَوْئِها تفحّصْتُ ما بِيَدي ، فَوَجَدْتُهُ عُلْبةً صَغيرةً فِضِّيَّةً ، وَغَمَرَني ٱلفَرحُ إذِ اعْتَقَدْتُ أنّني وَجَدْتُ الماسةَ ، وَخاصَّةً أنَّ الصُّنْدوقَ الّذي رَقَدْتُ بِجوارِهِ كانَ يَضُمُّ رُفاتَ ذي اللِّحْيةِ السَّوْداءِ ، وَكانَتِ ٱلعُلْبةُ مُدَلّاةً مِنْ عُنُقِهِ !

فَتَحْتُ ٱلعُلْبةَ بَعْدَ جَهْدٍ ، وَكَمْ كانَتْ صَدْمَتي عِنْدَما لَمْ أجِدْ بِداخِلِها غَيْرَ وَرَقةٍ صَغيرةٍ مَطْويّةٍ . وَلٰكِنْ رُبَّما كانَتْ تِلْكَ ٱلوَرَقةُ تَكْشِفُ مَكانَ ٱلماسةِ . وَعِنْدَما اقْتَرَبْتُ مِنَ الشَّمْعةِ رَأيْتُ عَلَيْها بِضْعةَ أسْطُرٍ جاءَ فيها :

قَدْ يَحْيا ٱلإنْسانُ ثَمانينَ عامًا ؛
وَتَقْطَعُ قَدَماهُ دَرْبَ الدُّموعِ ؛
قُمْ وَانْهَلْ مِنْ بِئْرِ ٱلمُتْعةِ وَٱلهَناءِ
فَالمَوْتُ يَأْتي مِنَ الشَّمالِ أوِ
ٱلجَنوبِ ، في الظَّهيرةِ أوِ ٱلمَساءِ

وَكانَتْ مُذَيَّلةً بِإمْضاءِ جُون مُوهُون . وَكانَتْ بَعْضُ ٱلكَلِماتِ تَبْدأُ بِأحْرُفٍ كَبيرةٍ وَٱلباقي كُلُّه مَكْتوبٌ بِخَطٍّ صَغيرٍ .

وَهٰكَذا اِنْتَهَتْ أحْلامي . وَكانَ عَلَيَّ أنْ أعودَ لِلْمَنْزِلِ رَغْمَ فَشَلي في ٱلعُثورِ عَلى ٱلماسةِ . وَعَلَّقْتُ ٱلعُلْبةَ حَوْلَ عُنُقي وَهَمَمْتُ بِٱلعَوْدةِ . وَما إنْ وَصَلْتُ إلى آخِرِ السِّرْدابِ حَتّى وَجَدْتُ راتْسي قَدْ سَدَّ ٱلفَجْوةَ وَغَطّاها بِٱلحِجارةِ . وَانْطَفَأتِ الشَّمْعةُ . وَأصْبَحْتُ في حالةٍ يُرْثى لَها مِنَ ٱلخَوْفِ وَٱلانْزِعاجِ . وَجَلَسْتُ أنْتَظِرُ بُزوغَ ٱلفَجْرِ ، آمِلًا أنْ أتَمَكَّنَ مِنْ إزالةِ الأتْرِبةِ

وَالأَحْجارِ على ضَوْءِ ما يَنْفُذُ إليَّ مِنْ أَشِعَّةِ النَّهارِ .

كُنْتُ مُتْعَبًا فغلبني النُّعاسُ ونِمْتُ ، وَلَمْ أَدْرِ كَمْ مِنَ الوَقْتِ نِمْتُ ؟ ولكِنِّي عِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ كانتِ الدُّنيا لا تَزالُ مُظْلِمةً ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِالانْتِعاشِ كما يَجِبُ أَنْ يَكونَ بَعْدَ نَوْمٍ طَويلٍ . وَرَفَعْتُ بَصَري إلى أَعْلى فَرَأَيْتُ بَصيصًا مِنَ النُّورِ يَتَخَلَّلُ الحِجارةَ فَوْقي ، فَأَدْرَكْتُ أَنّي نِمْتُ يَوْمًا بِأَكْمَلِهِ ، ذلِكَ أَنَّ الضَّوْءَ النّافِذَ إليَّ لَمْ يَكُنْ سِوى ضَوْءِ الشَّمْسِ الغارِبةِ ، الأَمْرُ الَّذي جَعَلَني أَشْعُرُ بِالفَزَعِ لأَنَّ ذلِكَ كانَ يَعْني أَنْ أُمْضِيَ لَيْلَةً أُخْرى في المَكانِ نَفْسِهِ .

بَدَأْتُ أَشْعُرُ بِالجُوعِ ، فَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَناوَلْتُ في الأَرْبَعِ وَالعِشْرينَ ساعةً الماضِيةِ أَيَّ طَعامٍ . كَذلِكَ شَعَرْتُ بِالعَطَشِ وَحاوَلْتُ أَنْ أُزيحَ الحِجارةَ بِأَصابِعي فَوَجَدْتُها قَدْ جَفَّتْ وَثَبَتَتْ في مَكانِها . وَبَعْدَ حَوالَى ساعةٍ مِنَ المُحاوَلاتِ المُضْنِيةِ ارْتَمَيْتُ على الأَرْضِ وَقَدْ تَلاشى آخِرُ بَصيصٍ مِنَ الضَّوْءِ وَعَمَّ ظَلامٌ حالِكٌ .

غَطَّيْتُ عَيْنَيَّ بِذِراعَيَّ حَتّى لا أَرى ما حَوْلي ، وَلَبِثْتُ بُرْهةً طَويلةً على تِلْكَ الحالِ ، ثُمَّ هَبَبْتُ واقِفًا أَصْرُخُ بِأَعْلى صَوْتي طالِبًا النَّجْدةَ مُناديًا راتْسي وَالزِّقيرَ وَغليني وَلكِنْ دُونَ جَدْوى .

حاوَلْتُ ثانِيةً أَنْ أُزيلَ الحِجارةَ ، وَلكِنْ جانَبَني التَّوْفيقُ ، فَسَلَّمْتُ أَمْري لِلّهِ ، وَنِمْتُ . وَلَمّا اسْتَيْقَظْتُ أَدْرَكْتُ أَنَّ شَمْسَ اليَوْمِ التّالي قَدْ أَشْرَقَتْ . وَحاوَلْتُ لِلْمَرَّةِ الثّالِثةِ أَنْ أَفْتَحَ الفَجْوةَ لأَخْرُجَ وَلكِنَّني فَشِلْتُ ، وَاسْوَدَّتِ الدُّنْيا في عَيْنَيَّ ، وَاعْتَراني دُوارٌ مُخيفٌ وَوَقَعْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ .

الفَصْلُ السّادِسُ

في نُزُلِ الوايْنَط

أَفَقْتُ فَوَجَدْتُ نَفْسي راقِدًا فَوْقَ فِراشٍ نَظيفٍ في غُرْفةٍ تَغْمُرُها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ . حَمْدًا لَكَ يا إِلٰهي على نِعْمَتِكَ ! ما أَحْلى ضَوْءَ الشَّمْسِ !

ظَنَنْتُ أَنّي في فِراشيَ المُعْتادِ في مَنْزِلِ خالَتي ، وَأَنَّ كُلَّ ما مَضى لَمْ يَكُنْ سِوى حُلْمٍ أَوْ كابوسٍ . وَحاوَلْتُ النُّهوضَ فَلَمْ أَقْدِرْ ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِالمَرَضِ وَالضَّعْفِ ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِوُجودِ شَيْءٍ ما حَوْلَ عُنُقي . وَعِنْدَما مَدَدْتُ يَدي وَجَدْتُ العُلْبةَ ، وَحينَئِذٍ أَيْقَنْتُ أَنَّ كُلَّ ما مَرَّ بي كانَ حَقيقةً لا حُلْمًا .

فُتِحَ البابُ وَدَخَلَ الزِّقيرُ بْلُوك ، فَمَدَدْتُ إِلَيْهِ يَدي وَقُلْتُ مُتَوَسِّلاً : « أَرْجوكَ أَنْقِذْني ، أَرْجوكَ . »

رَبَّتَ على رَأْسي بِعَطْفٍ وَقالَ : « اهْدَأْ يا فَتى وَلا تَخَفْ ، فَلَنْ يُؤْذِيَكَ أَحَدٌ . خُذِ اشْرَبْ . »

ناوَلَني كُوبًا مِنَ اللَّبَنِ السّاخِنِ . وَأَخْبَرَني وَأَنا أَشْرَبُهُ بِأَنَّني مَوْجودٌ في النُّزُلِ . وَلَمْ يَزِدْ على ذلِكَ ، بَلْ أَمَرَني أَنْ أَنامَ ثانِيةً وَوَعَدَ أَنْ يُوافِيَني بِباقي الأَخْبارِ فيما بَعْدُ .

مَضَتْ عَشَرَةُ أَيّامٍ أَوْ أَكْثَرُ قَبْلَ أَنْ أَتَماثَلَ لِلشِّفاءِ وَأَسْتَرِدَّ عافِيَتي . وَكانَ



الزَّفير طَوالَ تِلْكَ المُدَّةِ يُعامِلُني بِكُلِّ مَحَبَّةٍ وَحَنانٍ ، كَما لَوْ كانَ أُمًّا تَرْعَى طِفْلَها .

كانَ السَّيِّدُ غليني قَدْ لاحَظَ ، في أَثْناءِ انْحِباسي في المَقْبَرَةِ ، تَغَيُّبي عَنِ المَدْرَسَةِ ، فَذَهَبَ يَسْأَلُ عَنّي خالَتي ؛ فَأَخْبَرَتْهُ بِأَنّي قَدْ هَرَبْتُ وَأَنَّها لا تَعْلَمُ لي مَقَرًّا . فَذَهَبَ إِلى راتْسي وَكانَ هُوَ الآخَرُ يَجْهَلُ مَكاني . وَرَجَّحَ الجَميعُ أَنّي قَدْ هَرَبْتُ فَوْقَ ظَهْرِ سَفينَةٍ عابِرَةٍ .

وَفي نَفْسِ ذلِكَ اليَوْمِ الَّذي سَأَلَ فيهِ غليني عَنّي قالَ أَحَدُهُمْ في النُّزُلِ إِنَّهُ سَمِعَ أَصْواتًا عالِيَةً صادِرَةً مِنَ المَقابِرِ وَإِنَّهُ ظَنَّها صُراخَ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ .

عِنْدَما سَمِعَ الزَّفير ذلِكَ أَيْقَنَ أَنَّ شَخْصًا ما قَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ السِّرْدابَ وَأَصْبَحَ سَجينًا ، فَذَهَبَ مَعَ راتْسي يَسْتَطْلِعُ الأَمْرَ . وَهُناكَ وَجَداني في حالَةٍ تَقْرُبُ مِنَ المَوْتِ فَأَحْضَراني لِلنُّزُلِ .

حَضَرَ راتْسي لِزِيارَتي عِدَّةَ مَرّاتٍ وَقالَ لي مَرَّةً : « اِسْمَعْ يا جون ! لَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ غَيْري وَغَيْرُ الزَّفير يَعْلَمُ أَنَّكَ اكْتَشَفْتَ سِرَّ المَخْبَإِ . فَإِيّاكَ ، إِيّاكَ أَنْ تُخْبِرَ أَحَدًا . » أَمّا الزَّفير فَكانَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ أَنّي لَنْ أَبوحَ بِالسِّرِّ لِذا لَمْ يَقُلْ لي شَيْئًا .

بَعْدَ أَنْ تَماثَلْتُ لِلشِّفاءِ ذَهَبْتُ إِلى مَنْزِلِ خالَتي ، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ حَضَرَتْ لِزِيارَتي في النُّزُلِ قَطُّ أَوْ حَتّى اسْتَفْسَرَتْ عَنّي أَثْناءَ مَرَضي . فَقابَلَتْني بِجَفاءٍ وَغِلْظَةٍ وَقالَتْ : « عُدْ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ . اُغْرُبْ عَنْ وَجْهي ، وَعُدْ إِلى النُّزُلِ حَيْثُ تُحِبُّ أَنْ تَعيشَ . » وَفاضَتْ عَيْنايَ بِالدُّموعِ ، وَأَدَرْتُ وَجْهي وَتَرَكْتُ البَيْتَ الَّذي عَرَفْتُهُ ، وَلَمْ أَعْرِفْ غَيْرَهُ مُنْذُ نَشْأَتي .

عِنْدَما وَصَلْتُ إِلى النُّزُلِ وَأَخْبَرْتُ الزَّفير بِأَنَّ خالَتي طَرَدَتْني ظَهَرَ عَلَيْهِ الفَرَحُ وَقالَ : « الآنَ يُمْكِنُ أَنْ تُقيمَ مَعَنا وَتَصيرَ ابْنًا لي بَدَلاً مِنِ ابْني الفَقيدِ . »

وَهٰكَذا أَقَمْتُ في النُّزُلِ ، وَأَرْسَلَتْ لي خالَتي صُنْدوقَ مَلابِسي .

عِشْتُ مَعَ الزِّفير . وَكُنْتُ أَذْهَبُ لِلْمَدْرَسةِ في الصَّباحِ ، وَأَمْضي بَعْدَ الظُّهْرِ أُعاوِنُهُ في النُّزُلِ أَوْ في صَيْدِ السَّمَكِ .

كَثيرًا ما طَلَبْتُ مِنَ الزِّفير أَنْ يَصْحَبَني مَعَهُ في عَمَلِيّاتِ التَّهْريبِ الَّتي يَقومُ بِها ، فَكانَ يَرْفُضُ لِصِغَرِ سِنّي . وَبَعْدَ فَتْرةٍ بَدَأَ يَصْحَبُني مَعَهُ ، وَكَمْ مِنْ لَيْلةٍ أَمْضَيْتُها في القارِبِ ، وَلَمْ أَجْرُؤْ على دُخولِ السِّرْدابِ مَرَّةً ثانيةً .

لازَمَتْني العُلْبةُ الصَّغيرةُ ـ عُلْبةُ جون موهون ـ مُعَلَّقةً حَوْلَ عُنُقي ، وَقَدْ أَصْبَحَتْ لامِعةً بَرّاقةً بَعْدَ أَنْ قُمْتُ بِتَنْظيفِها وَكَثيرًا ما حاوَلْتُ مَعَ الزِّفير أَنْ نَحُلَّ سُطورَها وَلٰكِنْ دونَ جَدْوى .

الفَصْلُ السّابِعُ

الدَّبّوسُ يَسْقُطُ

في أَوائِلِ الرَّبيعِ حَضَرَ رَجُلٌ مِنْ دورْشِسْتَر ، وَعَلَّقَ على بابِ النُّزُلِ بَيانًا جاءَ فيهِ أَنَّ مَنْدوبَ المَلِكِ سَوْفَ يَحْضُرُ لِزِيارةِ قَرْيةِ مونْفليت خِلالَ أُسْبوعٍ .

وَمَنْدوبُ المَلِكِ هٰذا كانَ رَجُلًا ذا مَكانةٍ يَحْضُرُ مَرَّةً كُلَّ خَمْسةِ أَعْوامٍ لِيَتَفَقَّدَ أَراضِيَ المَلِكِ وَمُمْتَلَكاتِهِ . وَلَمْ يَكُنْ بِقَرْيَتِنا شَيْءٌ مِنْ هٰذِهِ المُمْتَلَكاتِ سِوى نُزُلِ « وايْنط » أَمّا باقي الأَرْضِ فَكانَتْ لِلْموهون .

وَكانَ يَحْضُرُ كَذٰلِكَ لِيُجَدِّدَ عَقْدَ إيجارِ النُّزُلِ ، وَيُقَرِّرَ مَنْ لَهُ الحَقُّ في اسْتِغْلالِهِ لِمُدَّةِ السَّنَواتِ الخَمْسِ التّالِيةِ . وَكانَ الزِّفير يَفوزُ دائِمًا بِتَجْديدِ عَقْدِ إيجارِ النُّزُلِ .

وَعِنْدَما رَأَيْتُ المَنْدوبَ مُقْبِلًا في الطَّريقِ مُمْتَطِيًا جَوادَهُ أَسْرَعْتُ وَأَخْبَرْتُ الزِّفير بِوُصولِهِ ، فَطَلَبَ مِنّي أَنْ أَذْهَبَ لِمَنْزِلِ خالَتي وَأُحْضِرَ شَمْعةً مِنْ عِنْدِها . وَلَمْ أَكُنْ قَدْ وَطِئْتُ عَتَبةَ بابِها مُنْذُ أَنْ طَرَدَتْني ، وَأَعْطَتْني الشَّمْعةَ وَتَمَنَّتْ أَنْ تُضيءَ الشَّمْعةُ قَلْبي وَبَصيرَتي .

عِنْدَما عُدْتُ إلى النُّزُلِ وَجَدْتُ جَوادَ المَنْدوبِ واقِفًا على بابِهِ وَحَوْلَهُ لَفيفٌ مِنْ أَهْلِ القَرْيةِ . وَكانَ المَنْدوبُ في الدّاخِلِ جالِسًا يَتَناوَلُ وَجْبةَ طَعامٍ شَهِيَّةً أَعَدَّها لَهُ الزِّفير .

أخذ الزِّفير الشَّمْعةَ مِنّي وَثَبَّتَها في وَسَطِ المِنْضَدةِ ، ثُمَّ قامَ مَنْدوبُ المَلِكِ

وغرز بها دبوسًا على بعد سنتيمترين من أعلاها . وكان العرف يقضي بأنه ما بقي الدبوس مغروسًا في الشمعة المضاءة يظل غطاء المزايدة مفتوحًا ويكون لأي فرد الحق في دخول المزايدة . وعندما تحترق الشمعة ويسقط الدبوس

يسقط ذلك الحق ويرسو المزاد على آخر شخص تقدم بعرض ويصبح النزل له مدة السنوات الخمس التالية .

بعد أن فرغ المندوب من تناول طعامه ، أضاء الشمعة . وبدأت المساومة . وتقدم إلزفير بمبلغ اثني عشر جنيهًا إيجارًا سنويًا للنزل كالمعتاد .

وجلس الجميع حول المنضدة يتجاذبون أطراف الحديث ويرقبون لهب الشمعة وهو يقترب ببطء من مكان الدبوس . وفجأة دفع ماسكيو الباب ودخل ، وتقدم إلى المنضدة ، فنهض إلزفير وقال : « يا سيد ماسكيو ، إنك لست صديقًا لي ، وسيسعدني أن تعود من حيث أتيت . فأنا أمنعك من الجلوس على هذه المنضدة بالذات . » وأدركت مقصد إلزفير من ذلك ، إذ كانت هذه المنضدة هي نفسها التي رأيت دفيد ممددًا عليها .

التفت ماسكيو إلى المندوب وسأله : « أخبرني ماذا تم حتى الآن . فإنني أرى أنه ما زال أمامنا نحو دقيقة . وأريد أن أنتهي من هذه المهمة لأنجز مهام أخرى في بردبورت . » فأخبره المندوب بالعرض الذي قدمه إلزفير ، ثم أمر بإعداد جواده عند الباب . وجلس الكل في صمت يرقبون . وفجأة شق الصمت صوت ماسكيو وهو يقول : « أنا أدفع ثلاثة عشر جنيهًا . »

فقال إلزفير بصوت عال دون أن يستدير أو ينظر إلى ماسكيو : « وأنا أدفع عشرين جنيهًا . »

قال ماسكيو : « واحدًا وعشرين . »

وَهٰكَذا ٱسْتَمَرَّتِ ٱلْمُزايَدَةُ بَيْنَهُما حَتّى أَوْصَلَها ماسْكيو إِلى واحِدٍ وَتِسْعينَ جُنَيْهًا ، وَ ٱلشَّمْعَةُ ما زالَتْ تَحْتَرِقُ وَ ٱلدَّبُّوسُ ما زالَ مَغْروزًا بِها .

قالَ ٱلْمَنْدوبُ : « يا لَلْغَباءِ ! ما هٰذا ٱلْعِنادُ ؟ يا سَيِّدُ بلوك ، وَفِّرْ عَلى نَفْسِكَ ٱلْعَناءَ وَ ٱلْمالَ ، وَدَعِ ٱلنُّزُلَ لِهٰذا ٱلرَّجُلِ فَإِنّي أَراهُ مُصَمِّمًا عَلى أَنْ يَفوزَ بِهِ . وَيُمْكِنُني أَنْ أُعْطيَكَ نُزُلَ « ٱلْفَرَسِ ٱلْأَبْيَضِ » في بِرِدْ بُورت ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ هٰذا ٱلنُّزُلِ بِكَثيرٍ . »

لَمْ يُعِرْهُ ٱلزِّفيرُ ٱهْتِمامًا وَقالَ : « مِئَةُ جُنَيْهٍ . »

قالَ ماسْكيو : « مِئَةٌ وَثَلاثينَ جُنَيْهٍ . » وَ ٱسْتُؤْنِفَ ٱلْمَزادُ حَتّى قالَ ٱلزِّفيرُ : « مِئَةٌ وَتِسْعينَ جُنَيْهًا . »

فَقالَ ماسْكيو : « مِئَتَيْ جُنَيْهٍ . » وَسَقَطَ ٱلدَّبُّوسُ .

ظَنَنْتُ أَنَّ ٱلزِّفيرَ سَيَنْقَضُّ عَلى ماسْكيو كَوَحْشٍ كاسِرٍ ، إِلّا أَنَّهُ نَهَضَ واقِفًا وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ ، ثُمَّ جَلَسَ ثانِيَةً في صَمْتٍ تامٍّ .

ٱلْتَفَتَ ٱلْمَنْدوبُ إِلى ٱلزِّفيرِ وَسَأَلَهُ : « أَتَرْغَبُ في ٱسْتِئْجارِ نُزُلِ « ٱلْفَرَسِ ٱلْأَبْيَضِ » في بِرِدْ بُورت ، فَبِالْقُرْبِ مِنْهُ مَدْرَسَةٌ صالِحَةٌ لِٱبْنِكَ ؟ » وَ أَوْمَأَ إِلَيَّ بِوَضْعِ يَدِهِ عَلى ذِراعي ظانًّا أَنَّني ٱبْنُ ٱلزِّفيرِ .

فَرَدَّ ٱلزِّفيرُ قائِلًا : « شُكْرًا يا سَيِّدي . إِنَّني حينَ أُغادِرُ هٰذا ٱلْمَكانَ فَلَنْ أُديرَ أَيَّ نُزُلٍ آخَرَ . »

وَرَحَلَ ٱلْمَنْدوبُ وَ جَلَسَ ٱلزِّفيرُ واضِعًا رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلى ٱلْمِنْضَدَةِ .

ٱلْفَصْلُ ٱلثّامِنُ

مُتَلَصِّصٌ بِٱلْباب

قابَلَ أَهْلُ ٱلْقَرْيَةِ ماسْكيو أَيْنَما حَلَّ بَعْدَ ذٰلِكَ بِنَظَراتِ ٱلْبُغْضِ وَ ٱلْكَراهِيَةِ ، فاعْتَكَفَ في دارِهِ أَيّامًا . وَقالَ ٱلْبَعْضُ إِنَّهُمْ رَأَوْهُ يَذْهَبُ إِلى وِيماوث لِيُقابِلَ مُحَصِّلي ضَرائِبِ ٱلدَّوْلَةِ ، وَ إِنَّهُ فَعَلَ ذٰلِكَ كَيْ يَتَّفِقَ مَعَهُمْ عَلى إِرْسالِ رِجالِهِمْ لِضَبْطِ ٱلْمُهَرِّبينَ .

وَصَلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَنْباءُ إِلى سَمْعِ ٱلزِّفيرِ ، فَأَوْقَفَ عَمَلِيّاتِ ٱلتَّهْريبِ ٱلَّتي كانَ يَقومُ بِها ـ بَعْضَ ٱلْوَقْتِ ـ حَتّى كانَ ذاتَ مَساءٍ أَخْبَرَني فيهِ أَنَّ هُناكَ شُحْنَةً مِنَ ٱلْبَضائِعِ تَنْتَظِرُ في سانْت مالو وَلا يُمْكِنُ ٱلِاحْتِفاظُ بِها هُناكَ مُدَّةً أَطْوَلَ مِنْ ذٰلِكَ . وَلِأَنَّ عُيونَ ماسْكيو كانَتْ مُنْبَثَّةً في كُلِّ مَكانٍ وَلا تَكُفُّ عَنْ مُراقَبَتِنا ، كانَ مِنْ غَيْرِ ٱلْمُمْكِنِ جَلْبُ ٱلْبَضائِعِ إِلى مونْفليت ؛ لِذا أَمَرَ سَفينَةَ ٱلْبوناڤَنْشَر ٱلَّتي تَحْمِلُ تِلْكَ ٱلْبَضائِعَ أَنْ تَتَوَجَّهَ شَمالًا إِلى مَكانٍ يُدْعى بايْغروف هُول ٱلْقُرْبَ مِنْ هُورْهِدْ . وَقَدْ ظَلَّ ٱلرِّجالُ يَسْتَعْمِلونَ ذٰلِكَ ٱلْمَكانَ كَمَخْبَإٍ عِدَّةَ سَنَواتٍ قَبْلَ ٱسْتِعْمالِ مَقْبَرَةِ ذي ٱللِّحْيَةِ ٱلسَّوْداءِ .

قالَ : « يَجِبُ أَنْ نَكونَ هُناكَ في هُورْهِدْ مُسْتَعِدّينَ بِجِيادِنا في ٱلسّاعَةِ ٱلْخامِسَةِ مِنْ صَباحِ ٱلْغَدِ ، وَكُنْتُ أَتَمَنّى لَوْ بَكَّرْنا عَنْ ذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلشَّمْسَ تُشْرِقُ في ٱلْخامِسَةِ ، وَلٰكِنَّ ٱلسَّفينَةَ لا يُمْكِنُ أَنْ تَصِلَ قَبْلَ ذٰلِكَ ٱلْحينِ . »

وَبَيْنَما كانَ يَتَكَلَّمُ شَعَرْتُ بِهَواءٍ بارِدٍ يَلْفَحُ ظَهْري ، فَتَلَفَّتُّ حَوْلي لِأَرى هَلْ هُناكَ نافِذَةٌ مَفْتوحَةٌ فَلَمْ أَجِدْ . وَلَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ ٱلْبابِ مِنْ مَكاني ، فَنَهَضْتُ وَذَهَبْتُ نَحْوَ ٱلْبابِ فَلَمَحْتُهُ يَتَحَرَّكُ فَأَسْرَعْتُ بِفَتْحِهِ وَخَرَجْتُ إِلى الطَّريقِ ، وَلٰكِنَّ الظَّلامَ كانَ دامِسًا ، فَلَمْ أَسْمَعْ سِوى صَوْتِ ٱلْأَمْواجِ مِنْ بُعْدٍ ، لِذٰلِكَ عُدْتُ إِلى ٱلْغُرْفَةِ .

سَأَلَني إِلْزِقير : « ما ٱلْخَبَرُ ؟ »

أَجَبْتُ : « لَقَدْ تَخَيَّلْتُ شَخْصًا يَسْتَرِقُ السَّمْعَ بِالْبابِ . أَلَمْ تَشْعُرْ بِنَسْمَةِ هَواءٍ بارِدَةٍ كانَتْ تَهُبُّ عَلَيْنا مِنْ ناحِيَةِ ٱلْبابِ ؟ »

قالَ : « لا ، وَلٰكِنَّ ٱلْجَوَّ اللَّيْلَةَ بارِدٌ وَلا شَكَّ . »

قُلْتُ : « ما زِلْتُ غَيْرَ مُقْتَنِعٍ ، قَدْ يَكونُ هُناكَ شَخْصٌ يَتَجَسَّسُ عَلَيْنا . يَحْسُنُ بِنا أَنْ نَأْخُذَ الشَّمْعَةَ وَنُفَتِّشَ ٱلْمَكانَ لِنَتَأَكَّدَ مِنْ خُلُوِّهِ . »

قالَ إِلْزِقير : « لا تَقْلَقْ ، فَالْهَواءُ ٱلْبارِدُ هُوَ الَّذي دَفَعَ ٱلْبابَ . وَلٰكِنِ افْعَلْ ما تُريدُ . »

أَخَذْنا الشَّمْعَةَ وَطُفْنا بِالْمَكانِ فَلَمْ نَقِفْ لِأَحَدٍ عَلى أَثَرٍ ، فَضَحِكَ إِلْزِقير وَعاوَدْنا حَديثَنا .

قالَ : « لَمْ يَبْقَ لَنا في هٰذا ٱلْمَكانِ سِوى أُسْبوعَيْنِ ، وَكَمْ يُحْزِنُني أَنْ أَرى هٰذِهِ ٱلْأَبْوابَ مُوصَدَةً في وَجْهي بَعْدَ أَنْ أَمْضَيْتُ وَعائِلَتي في ٱلْمَكانِ ما يَزيدُ

عَنْ مِئَةِ عامٍ . وَلٰكِنْ ما بِٱلْيَدِ حيلَةٌ ، غَدًا إِنْ شاءَ اللّٰهُ نَبْحَثُ عَنْ مَنْزِلٍ قُرْبَ ٱلْبَحْرِ بِٱلْقُرْبِ مِنْ بايْغروف هُول . إِنَّ بايْغروف هُول كَهْفٌ كَبيرٌ سَنَجِدُ فيهِ مُتَّسَعًا لِبَضائِعِنا ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُهَرِّبونَ عَلى مَدى مِئاتِ السِّنينَ . »

كُنْتُ أُفَكِّرُ في أُمورٍ أُخْرى ، وَلَمْ أُجِبْهُ فَقالَ : « أَنْتَ مُتْعَبٌ يا فَتى ! اذْهَبْ إِلى فِراشِكَ ، فَغَدًا لَنْ نَنامَ إِلَّا قَليلًا . »

كُنْتُ مُتْعَبًا حَقًّا كَما قالَ إِلْزِقير ، وَلٰكِنّي لَمْ أَنَمْ . فَقَدْ شَعَرْتُ بِالْحُزْنِ لِمُغادَرَةِ قَرْيَةِ مونْفليت وَتَرْكِ غْريس ماسْكيو . وَمَعَ أَنّي كُنْتُ صَبِيًّا فَقَدْ كُنْتُ أَزْدادُ تَعَلُّقًا بِها ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، وَأَهيمُ بِها ٱلْهُيامَ الَّذي يَقْوى عَلَيْهِ فَتًى في مِثْلِ سِنّي . وَكانَتْ عالِمَةً بِكُلِّ أَسْراري ، وَقَدْ أَخْبَرْتُها سِرَّ السِّرْدابِ وَمَخْبَإِ الْمُهَرِّبينَ ، لِأَنّي كُنْتُ واثِقًا أَنَّها لَنْ تَبوحَ بِأَسْراري لِأَحَدٍ قَطُّ ، حَتّى لِأَبيها . وَلَمّا سَمِعَتْ عَنِ ٱلْمُهَرِّبينَ قالَتْ :

« اسْمَعْ يا جون ، سَأَضَعُ دائِمًا شَمْعَةً مُضاءَةً في نافِذَتي طَوالَ لَيالي الشِّتاءِ فَتَبْدو كَمَنارَةٍ لِلسُّفُنِ الَّتي تَعْبُرُ ٱلْبَحْرَ ، وَتَراها أَنْتَ . »

وَقَدْ وَفَتْ بِوَعْدِها . وَرَأى كَثيرونَ الشَّمْعَةَ ٱلْمُضاءَةَ فَأَطْلَقوا عَلَيْها اسْمَ « مَنارَةِ ماسْكيو » وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ سَبَبَ إِقامَتِها أَحَدٌ سِوايَ .

عِنْدَما وَجَدْتُ نَفْسي عَلى أُهْبَةِ الرَّحيلِ ، الَّذي قَدْ يَكونُ لِلْأَبَدِ ، قَرَّرْتُ أَنْ أُقابِلَ غْريس لِأُوَدِّعَها وَأُخْبِرَها بِعَزْمي عَلى السَّفَرِ

اَلْفَصْلُ التَّاسِعُ

غْرِيس ماسْكيو

لَنْ أَنْسى ٱلْيَوْمَ التَّالِيَ ما حَييتُ . فَقَدْ ذَهَبْتُ إِلى غابَةِ ٱلْقَصْرِ بِٱلْقُرْبِ مِنْ مَنْزِلِ غْرِيس . فَوَجَدْتُ تَجْويفًا صَغيرًا عَلى سَفْحِ التَّلِّ ٱلْمُجاوِرِ لِلْمَنْزِلِ ، يَتَّسِعُ لِغُلامٍ في حَجْمي كَيْ يَرْقُدَ فِيهِ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ مِنَ ٱلْعُمْقِ بِحَيْثُ يَحُولُ دونَ النَّظَرِ مِنْهُ فَرَقَدْتُ هُناكَ وَٱنْتَظَرْتُ .

كانَ ٱلْيَوْمُ صَحْوًا ، وَأَشِعَّةُ الشَّمْسِ دافِئَةً ، وَالرِّياحُ ساكِنَةً . وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى مِنْ مَكاني سُحُبَ ٱلْغُبارِ ٱلْمُتَصاعِدَة خَلْفَ ٱلْعَرَباتِ ٱلْمارَّةِ عَلى الطَّريقِ . وَبَدَتْ فُروعُ ٱلأَشْجارِ مُوَرِّقَةً ، وَبَراعِمُ ٱلأَزْهارِ ٱلْبَرِّيَّةِ مُتَفَتِّحَةً . فَتَحْتُ ٱلْعُلْبَةَ ٱلْمُعَلَّقَةَ في رَقَبَتي ، وَأَخَذْتُ أَقْرَأُ بِإِمْعانٍ ٱلْمَكْتوبَ في ٱلْوَرَقَةِ :

قَدْ يَحْيا ٱلإِنْسانُ ثَمانينَ عامًا . . .

ضَحِكْتُ مِنْ نَفْسي ، كَمْ كُنْتُ أَبْلَهَ حِينَ تَوَقَّعْتُ أَنْ أَجِدَ ٱلأَلْماس وَصَناديقَ الذَّهَبِ ! وَمَعَ ذٰلِكَ فَٱلماسَةُ مَحْفوظَةٌ في مَكانٍ ما ، وَلٰكِنْ أَيْنَ ؟

حَدَّثَتْني غْرِيس عَنِ اعْتِزامِ الزِّفْيرِ تَرْكَ نُزُلِ « وايْنط » . وَلَمْ تَذْكُرْ أَباها بِسُوءٍ ، وَلٰكِنْ بَدا عَلى وَجْهِها أَنَّها تَتَأَلَّمُ مِنْ تَصَرُّفاتِهِ . كَما أَظْهَرَتْ حُزْنَها لِرَحيلي ، وَقَدْ سَعِدْتُ لِما بَدا عَلَيْها مِنْ حُزْنٍ وَأَسًى لِأَنِّي تَأَكَّدْتُ وَقْتَها مِنْ شُعورِها نَحْوي .

قالَتْ غْرِيس : « أَمْسِ في نَحْوِ التَّاسِعَةِ (وَكانَ ذٰلِكَ في نَفْسِ ٱلْوَقْتِ الَّذي كُنْتُ أَتَحَدَّثُ فِيهِ مَعَ الزِّفْير) هَبَّ والِدي مِنْ مَكانِهِ قائِلًا : « سَأَخْرُجُ إِلى ٱلْحَديقَةِ أَسْتَنْشِقُ ٱلْهَواءَ . وَأَثارَ ذٰلِكَ دَهْشَتي لِأَنَّ اللَّيْلَةَ كانَتْ شَديدَةَ ٱلْبُرودَةِ ، عاصِفَةَ الرِّياحِ . وَعادَ بَعْدَ حَوالَى ساعَةٍ وَأَخْبَرَني أَنَّهُ سَيَرْحَلُ في ٱلْحالِ إِلى وِيْماوِث عَلى أَنْ يَعودَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ . وَأَخَذَ مِعْطَفَهُ وَقُبَّعَتَهُ وَمَضى . »

رَوَتْ غْرِيس هٰذا ، وَهِيَ مُتَعَجِّبَةٌ مِنْ تَصَرُّفاتِ والِدِها . أَمَّا أَنا فَقَدْ أَثارَ حَديثُها ٱلْخَوْفَ في نَفْسي . تُرى ما السَّبَبُ في ذَهابِ ماسْكيو ٱلْمُفاجِئِ إِلى وِيْماوِث ؟

تَرَكَتْني غْرِيس ، وَكانَ ٱلْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا حِينَ عُدْتُ لِلنُّزُلِ ، وَقَدِ امْتَلأَ صَدْري بِٱلأَسى ، وَأَثْقَلَهُ ٱلْهَمُّ وَٱلْحُزْنُ ، وَشَعَرْتُ بِأَنِّي مُقْبِلٌ عَلى أَيّامٍ حافِلَةٍ بِٱلْمَتاعِبِ وَٱلْعَقَباتِ .

الفصلُ العاشرُ

القبْضُ على ماسْكيو

تركْتُ النُّزُلَ ، معَ الزقير ، قبْلَ الميعادِ الَّذي سبقَ اتِّفاقُنا عليْهِ ، لأنَّ أخبارَ وَصَلَتْنا مِنْ أحدِ بحّارةِ السَّفينةِ تُنْبِئُ بأنَّ ميعادَ وُصولِهِ قدْ تقدَّمَ ساعتيْنِ .

كانَتِ السَّاعةُ السَّابعةَ عِنْدَما وَصَلْنا إلى قِمَّةِ التَّلِّ ، الَّذي يَبْعُدُ خمْسةَ عشرَ ميلاً عَنْ هُورْهِدْ . وأدْرَكَنا الظَّلامُ بعْدَ مَسيرةِ نِصْفِ ساعةٍ ، إلاَّ أنَّ اللَّيْلةَ كانَتْ مُقْمِرةً نوْعًا ما أكْثرَ مِنْ سابقَتِها ، وكانَ النَّسيمُ عليلاً والسَّماءُ صافيةً . وقَدْ سلكْنا الطَّريقَ في صَمْتٍ مُسْتَرْشِدينَ ، بالحجارةِ البيْضاءِ الَّتي وضعها مُحَصِّلو ضرائبِ الدَّوْلةِ ، كعلاماتٍ ، على الطَّريقِ . ووصلْنا إلى قِمَّةِ هورْهِدْ وهِيَ أعْلى بُقْعةٍ على الشَّاطئِ . وبيْنَ القِمَّةِ والشَّاطئِ جُرُفٌ صخْريٌّ شديدُ الانْحدارِ يسْتَحيلُ تسلُّقُهُ . لكِنْ يخْترقُ ذلكَ الجُرْفَ ممرٌّ مُتعرِّجٌ يُمْكِنُ سُلوكُهُ ببُطْءٍ . وقدْ سلكْنا ذلكَ الممرَّ برَويَّةٍ ، فوصلْنا الشَّاطئَ بعْدَ خمْسَ عشْرةَ دقيقةً .

لمْ نكُنْ وحْدَنا ، فقدْ رأيْتُ هناكَ حوالى عشْرينَ رجُلاً . البعْضُ واقفٌ على الرِّمالِ ، والبعْضُ على الصُّخورِ ، كما كانَ بعْضُهُمْ مُمْسِكًا بالجيادِ . وكانوا يتحدَّثونَ بأصْواتٍ خافتةٍ . وجلسْنا ، ولمْ يطُلِ انْتظارُنا ، فقدْ أقْبلَ علينا شخْصٌ ، وإذْ بهِ راتْسي .

قالَ : « كُنْتُ أحْيانًا أفكِّرُ أنْ أهْجُرَ القرْيةَ يا الزقير ، ولكِنْ إذا فعلْتُ ، فمنْ يُعْنى بالقُبورِ بعْدي ؟ »

وكُنْتُ نصْفَ نائمٍ . وقلْتُ لهُ : « سوْفَ يجدونَ مَنْ يحِلُّ محلَّكَ . »

جلسَ راتْسي بجانبي ، وأخذَ يتحدَّثُ ، إلاَّ أنِّي لمْ أُعِرْهُ الْتفاتًا ، إذْ كُنْتُ أشْعُرُ بالنُّعاسِ . وفجْأةً سمِعْنا صيْحةً تُدَوِّي في الفضاءِ فنهضْنا جميعًا واتَّجهْنا نحْوَ الشَّاطئِ صامتينَ .

وجدْنا أوَّلَ قاربٍ قدْ وصلَ إلى الشَّاطئِ فبدأْنا في تفْريغِ ما عليْهِ مِنْ بضائعَ . وكانَ مشْهدًا عجيبًا ، فالرِّجالُ يتحرَّكونَ جيْئةً وذهابًا ، في الضَّوْءِ



الذّهبيّ للمصابيحِ الّتي أنارتْ لهمُ الطّريقَ ، وهمْ يحْملونَ البضائعَ منَ القواربِ ويضعونها على ظهورِ الجيادِ الواقفةِ .

بعْدَ مُضيّ ساعتيْنِ ، كانَ الرّجالُ قدِ انْتهوْا منْ نقْلِ الحمولةِ وبدأتِ الجيادُ تتحرّكُ ، بعْضُها محمّلٌ بالصّناديقِ والبعْضُ بالبراميلِ . وبدأْنا في صُعودِ الطّريقِ إلى القمّةِ . وعنْدما وصلْتُ إلى بدايةِ الطّريقِ لمحْتُ شيْئًا يتحرّكُ خلْفَ شجرةٍ ، كما لمحَ ذلكَ غيْري . وبدأَ الرّجالُ يصْرخونَ ، ثُمّ رأيْتُ شخْصًا يعْدو هاربًا ، وفي أثرِهِ عِدّةُ رجالٍ ، كانُوا قدْ وضعوا أحْمالَهُمْ على الأرْضِ وأسْرعوا خلْفَهُ .

وكانَ أقْربُ الرّجالِ إليْهِ دامنْ ، وجارتْ وكُنْتُ أسْتطيعُ رُؤيةَ الرّجلِ الّذي يجْري منْهُما . وكانَ يجْري بسُرْعةٍ لمْ أكُنْ أتصوّرُ أنّها مُمْكنةٌ .

ثُمّ أدْركْتُ لماذا كنَ يجْري بهذهِ السّرْعةِ . إنّهُ كانَ يجْري للنّجاةِ بحياتِهِ . لقدْ كانَ الموْتُ نصيبَهُ إذا قُبِضَ عليْهِ . ونظرْتُ إليْهِ . . كانَ ماسْكيو . واسْتمرّ مُنْطلقًا ، ولكنْ لمْ يكُنْ هُناكَ أملٌ في نجاتِهِ : فقدْ كانَ دامنْ وجارتْ أسْرعَ العدّائينَ في هذهِ المنْطقةِ منْ بلادِنا .

ووقفْنا جميعًا حتّى وقعَ الرّجُلُ في يدِ مُتعقّبيْهِ وتطلّعْتُ إلى وجْهِ الزّفيرِ . لقدْ كانَ يترقّبُ ذلكَ ، وكانَ في انْتظارِهِ ، وقدْ وقعَ ما كانَ ينْتظرُهُ . وكانَ قدْ قرّرَ ما سيفْعلُهُ . لقدْ قرأْتُ في وجْهِهِ كلمةَ الموْتِ ـ الموْتِ لماسْكيو .

سمعْتُ صرْخةً خافتةً ، ثُمّ رأيْتُ الرّجُليْنِ عائديْنِ وبيْنهُما ماسْكيو يجُرّانِهِ منْ ذراعيْهِ . أصابني غثيانٌ منْ ذلك المنْظرِ ، فقدْ كنْتُ أوّلَ مرّةٍ أرى فيها رجُلاً يُعاملُ هكذا . وقدْ سقطتْ قُبّعتُهُ وتدلّى شعْرُهُ فوْقَ وجْهِهِ الشّاحبِ ، وتعالتِ الأصْواتُ عاصفةً تُنادي : « أطْلقوا عليْهِ النّارَ . » ويقولُ آخرونَ : « اشْنُقوهُ ، اقْذفوا بهِ منْ أعْلى الجُرْفِ إلى القاعِ . » وأبْصرَ أحدُهُمْ مُسدّسًا تحْتَ معْطفِ ماسْكيو ، فانْتزعَهُ ورمى بهِ عنْدَ قدَمي الزّفيرِ . حينئذٍ علا صوْتُ الزّفيرِ فوْقَ الجميعِ آمرًا : « لا يلْمسْهُ أحدٌ منْكُمْ . ألا تعْلمونَ أنّهُ قاتلُ أبي ؟ ! أوْثقوا يديْهِ ورجْليْهِ واتْركوهُ لي وحْدي واذْهبوا . » لمْ يبْقَ غيْرُ لحظاتٍ قصيرةٍ على شُروقِ الشّمْسِ ، وتحرّكَ الرّجالُ جميعُهُمْ بجيادِهِمْ ، وبقينا نحْنُ الثّلاثةَ وحْدَنا : ماسْكيو والزّفيرُ ، وأنا . وكانَ المُسدّسُ على الأرْضِ عنْدَ قدَمي الزّفيرِ .



اَلفَصْلُ الحادِيَ عَشَرَ

مَوْتُ ماسْكيو

خوْفًا من النف، ورؤْية نهاية ماسْكيو هممْتُ بأنْ ألْحق بالرّحال ، لكنّ إلْرقير ناداني قائلاً « انْتظرْ ياجُون ، فقدْ أحْتاجُ إليْكَ فيما بعْدُ » وانْتظرْتُ دُون أنْ أدْري كيْف يُمْكنُ أنْ يَحْتاج إليَّ ؟ يحْتاجُ إليَّ في ماذا ؟

جلَس ماسْكيو مُوثقًا على الأرْض ، وظَهْرُهُ إلى الصَّخْرة ، وكان شاحب اللَّوْن مُنكَس الرَّأْس ، على حين وقفَ إلْرقير أمامهُ ، مُمْسكًا بمصْباح ، ومُحَمْلقًا في وَجْهِهِ .

كُنّا نسْمَعُ وقْع حوافِرِ الخَيْلِ على أرْض المَمرِّ ، تحت الأحْمال الثَّقيلة وَ تلاشَتْ أصْواتُ وَقْعِ الأقْدامِ الذّاهبة شيْئًا فَشَيْئًا ، فازْدادَ السُّكونُ و عمَّتِ الرَّهْبَةُ ، ولَمْ يَكُفَّ إلْرقير عنِ النَّظر إلى وجْه مسْكيو الشّاحب .

وَقالَ ماسْكيو لإلْـرقير « أنا ضابطٌ قضائيٌّ ، وحتْمًا سيُعْدمونك إنْ لمْ تُطْلقْ سَراحي وَتتْرُكْني . »

وَ بالرَّغْم مِنْ أنَّ كَلِماتِهِ كانَتْ كَلِماتِ بُطولةٍ وَ شجاعةٍ ، فَقَدْ كانَتْ ــ فيما يَبْدو ــ مُجَرَّدَ تَظاهُرٍ بالشَّجاعةِ ؛ فَإنَّ صَوْتَهُ كانَ يَرْتَجفُ رُعْبًا .

رَدَّ عليْهِ إلْرقير وَكَأنَّهُ قاضٍ يُحاكِمُ مُجْرِمًا « لا تُحدِّثْني عن الإعْدام ،

فَلَنْ تكونَ سَبَبًا في إعْدامِ أَحَدٍ وَلَنْ ترى أَحَدًا يُعْدَمُ بَعْدَ ٱلآنَ . أَتَذْكُرُ يَوْمَ وَقَفْتَ تُراقِبُ الشَّمْعَةَ تَحْتَرِقُ وَ الدَّبُّوسَ يَسْقُطُ لِتَطْرُدَني مِنْ بَيْتي ؟ ٱلْيَوْمَ سَتُراقِبُ شَمْعَةً أُخْرى تَحْتَرِقُ وَدَبُّوسًا آخَرَ يَسْقُطُ . وَعِنْدَما يَسْقُطُ سَأُطْلِقُ رَصاصَةً مِنْ مُسَدَّسِكَ على رَأْسِكَ وَأَقْتُلُكَ كَما لَوْ كُنْتَ وَحْشًا كاسِرًا . »

أَخَذَ ٱلزَّفيرُ شَمْعَةً وَثَبَّتَ فيها دَبُّوسًا على مَسافَةِ بُوصَةٍ مِنْ أَعْلاها ، وَثَبَّتَ الشَّمْعَةَ فَوْقَ ٱلْحَشائِشِ أَمامَ ماسْكيو وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ .

لَمْ أَكُنْ أُحِبُّ ماسْكيو ، وَلَوْ سُئِلْتُ مُنْذُ ساعةٍ عَنْ رَأْيِي لَقُلْتُ إِنَّهُ يَسْتَحِقُّ ٱلْقَتْلَ . وَلٰكِنَّني في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، أَخَذْتُ أَبْتَهِلُ إلى اللهِ ، في سَريرَتي ، أَنْ يُتيحَ لَهُ فُرْصَةَ النَّجاةِ وَ ٱلْهَرَبِ . وَ شَعَرْتُ بِٱلْخَوْفِ مِنَ ٱلزَّفيرِ ، وَ بِٱلْغَثَيانِ مِنَ التَّفْكيرِ فيما اعْتَزَمَ أَنْ يَفْعَلَهُ .

اخْتَفَتِ النُّجومُ وَ بَدَتْ بَشائِرُ الصَّباحِ تَلوحُ ، وَلَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ بَعْدُ . وَلَبِسَ ٱلكَوْنُ كُلُّهُ حُلَّةً رَمادِيَّةً : السَّماءُ وَ الصُّخورُ وَ ٱلأَشْجارُ . وَكانَ أَكْثَرُ شَيْءٍ عَلاهُ هٰذا اللَّوْنُ الرَّماديُّ هوَ وَجْهُ ماسْكيو ، كَما ظَهَرَتْ خُطوطٌ قاتِمَةٌ تَحْتَ عَيْنَيْهِ ، وَ تَجَمَّدَتْ بَعْضُ قَطَراتِ الدَّمِ عَلى جانِبِ وَجْهِهِ إِثْرَ إِصابَتِهِ بِحَجَرٍ .

أَبْقى ماسْكيو عَيْنَيْهِ مُثَبَّتَتَيْنِ عَلى ٱلأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَنَظَرَ إِلَيَّ ، وَلَمْ أَرَ في عَيْنَيْهِ سِوى ٱلعَجْزِ ٱلَّذي يُشاهَدُ في نَظَراتِ حَيَوانٍ ضَعيفٍ يُوشِكُ أَنْ يَموتَ . وَحَتّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَمْ أَكُنْ لاحَظْتُ أَيَّ شَبَهٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ابْنَتِهِ غريس ، أَمّا ٱلآنَ فَقَدْ خُيِّلَ لي أَنَّ غْريس تَتَطَلَّعُ إِلَيَّ مِنْ وَراءِ نَظَراتِهِ ، وَ لَمْ أَقْوَ عَلى

تَحَمُّلِ ٱلْمَوْقِفِ وَرُؤْيَتِهِ يُقْتَلُ أَمامَ عَيْنَيَّ .

تَطَلَّعَ ماسْكيو إلى الشَّمْعَةِ وَكَأَنَّما يَتَطَلَّعُ إلى دَقائِقِ حَياتِهِ وَهيَ تَتَساقَطُ قَطْرَةً قَطْرَةً مَعَ قَطَراتِ الشَّمْعَةِ ٱلْمُتَساقِطَةِ ؛ وَبَعْدَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً سَوْفَ يَسْقُطُ الدَّبُّوسُ .

وَ أَخيرًا قالَ مُسْتَعْطِفًا : « لا تَقْتُلْني ياسَيِّد بلُوك . إِنَّ لي ابْنَةً وَحيدَةً لَيْسَ لَها عائِلٌ سِوايَ ، فَهَلْ تَسْمَحُ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَحْرِمَ فَتاةً صَغيرَةً عائِلَها ٱلوَحيدَ في هٰذا ٱلعالَمِ ؟ وَهَلْ تَرْضى أَنْ يَحْمِلوا إِلَيْها جُثَّةَ أَبيها مُلَطَّخَةً بِالدِّماءِ وَ الرِّمالِ ، بَعْدَ أَنْ يَجِدوهُ صَريعًا عَلى الشّاطِئِ ؟ »

رَدَّ ٱلزَّفيرُ قائِلًا : « لَقَدْ كانَ لي ابْنٌ ، ابْنٌ وَحيدٌ ، أَحْضَروهُ لي صَريعًا . أَتَدْري مَنْ صَرَعَهُ ؟ وَأَيُّ مُسَدَّسٍ سَلَبَهُ ٱلحَياةَ ؟ لَقَدْ كانَ هٰذا ٱلمُسَدَّسُ نَفْسُهُ الَّذي سَأَقْتُلُكَ بِهِ . أَسْرِعْ ، وَسَلْ رَبَّكَ الرَّحْمَةَ وَٱلغُفْرانَ ، فَلَيْسَ هُناكَ وَقْتٌ لِصَلاةٍ طَويلَةٍ . » ثُمَّ ٱلْتَقَطَ ٱلمُسَدَّسَ وَ أَدارَ ظَهْرَهُ لِماسْكيو وَأَخَذَ يَمْشي بِبُطْءٍ جَيْئَةً وَذَهابًا .

أَلْهَبَتْ كَلِماتُ ماسْكيو عَنِ ابْنَتِهِ غَضَبَ ٱلزَّفيرِ ، وَذَكَّرَتْهُ بِمَصْرَعِ ابْنِهِ داڤيد وَلٰكِنَّها نَفَذَتْ إِلى قَلْبي وَذَكَّرَتْني بِغْريس ، فَرُحْتُ أَتَوَسَّلُ إلى ٱلزَّفيرِ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ عَزْمِهِ وَتَرَكَني حَتّى أَتْمَمْتُ كَلامي ثُمَّ قالَ :

« أَنْتَ غُلامٌ عَطوفٌ ، وَهٰذا ما يَجْعَلُني أُحِبُّكَ . كانَ يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقْتُلَهُ وَأَنا في سَوْرَةِ غَضَبي ، أَمّا ٱلآنَ بَعْدَ التَّفْكيرِ ، لا أَقْدِرُ عَلى قَتْلِ رَجُلٍ مُوثَقٍ



آليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ ، حَتَّى وَلَوْ كانَ قَتَلَ لي عِشْرينَ ابْنًا . ولكِنْ لَقَدْ تَرَكَهُ لي رِجالي ، وَ إذا تَرَكْتُهُ أنا فَسَيَعْمَلُ على إعْدامِهِمْ ، وَلِذا لا بُدَّ لي مِنْ قَتْلِهِ . »

ظَلَلْتُ مُمْسِكًا بِذِراعِ آلرِّفْير بِكِلْتا يَدَيَّ أَرْجوهُ أَنْ يَعْفوَ عَنْ ماسْكيو ، وَلكِنَّهُ دَفَعَني عَنْهُ ، وَرَأَيْتُ تَصْميمَهُ على قَتْلِهِ

عِنْدَما عُدْنا إلى حَيْثُ كانَ ماسْكيو جالِسًا ، رَأَيْتُ أَشِعَّةَ الشَّمْسِ تُشْرِقُ مِنْ بَعيدٍ عَلى سَطْحِ آلمِياهِ ، كَما رَأَيْتُ الدَّبُّوسَ يَميلُ بِبُطْءٍ وَأَدْرَكْتُ كَما أَدْرَكَ ماسْكيو أَنَّ آلوَقْتَ أَزِفَ

عادَ ماسْكيو يَسْتَعْطِفُ آلرِّفْير ، وَبَعْدَهُ بِتَقْديمِ مَبْلَغٍ مِنَ آلمالِ أَخَذَ يَزيدُهُ مِنْ أَلْفِ جُنَيْهٍ إلى خَمْسَةِ آلافٍ ثُمَّ إلى عَشَرَةِ آلافِ جُنَيْهٍ مُقابِلَ إخْلاءِ سَبيلِهِ . كَما أَقْسَمَ بِأَنْ يَهْجُرَ آلقَرْيَةَ بِأَكْمَلِها وَيُعيدَ النُّزُلَ إلى آلرِّفْير وَكانَتِ الدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَ آلرِّفْير جامِدٌ كَالصَّخْرِ لا يَتَحَرَّكُ . وَأَعَدَّ آلمُسَدَّسَ لِإِطْلاقِ النّـارِ ، وَسَدَدْتُ أُذُنَيَّ بِأَصابِعي وَ أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ حَتّى لا أَسْمَعَ وَ لا أَرى ؛ وَسَقَطَ الدَّبُّوسُ !

رَفَعَ آلرِّفْير آلمُسَدَّسَ ، فَهَجَمْتُ عَلَيْهِ لِأَمْنَعَهُ مِنْ إطْلاقِهِ . وَمَضى بَعْضُ آلوَقْتِ وَنَحْنُ نَتَصارَعُ ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ رَصاصَةٌ مِنَ آلمُسَدَّسِ . كَيْفَ ؟ لا أَدْري ! وَتَرَكْتُ آلرِّفْير وَنَظَرْتُ إلى ماسْكيو فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ يَتَهَلَّلُ بِشْرًا ، وَرَأَيْتُهُ يَتَطَلَّعُ إلى أَعْلى الطَّريقِ وَ ظَنَنْتُهُ يَحْمَدُ السَّماءَ عَلى نَجاتِهِ ، وَلكِنَّ أَحْداثًا جَديدَةً تَوالَتْ : فَقَدْ سَمِعْتُ أَصْواتًا آتِيَةً مِنْ بَعيدٍ ، وَتَلَفَّتَ آلرِّفْير حَوْلَهُ لِيَرى مِنْ أَيْنَ تَأْتي ، أَمّا ماسْكيو فَاسْتَمَرَّ ناظِرًا إلى أَعْلى الطَّريقِ

اقْتَرَبَتِ ٱلأَصْواتُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَفي لَحْظَةٍ كانَ هُناكَ عِشْرونَ رَجُلًا يَقِفونَ عِنْدَ قِمَّةِ الطَّريقِ ، وَقَدْ بَدا لَنا جَلِيًّا في ضَوْءِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ أَنَّهُمْ جُنودٌ . وَأَدْرَكْتُ — كَما أَدْرَكَ الزَّقيرُ — أَنَّ ماسْكيو كانَ قَدِ اسْتَدْعاهُمْ وَأَعَدَّ مِنْهُمْ كَمينًا لِإِمْساكِنا وَنَحْنُ نَرْتَقي الطَّريقَ ، إِلَّا أَنَّ وُصولَ السَّفينَةِ مُبَكِّرًا عَنْ ميعادِهِ كانَ سَبَبًا في تَأَخُّرِهِمْ .

صَرَخَ صَوْتٌ : « بِاسْمِ ٱلقانونِ قِفْ ! »

صاحَ الزَّقيرُ : « رَبَّاهُ ! لَقَدْ ضِعْنا ! إِنَّهُمْ جُنودُ ٱلمَلِكِ ، وَ مادُمْنا سَنَموتُ فَلْيَمُتْ هٰذا الرَّجُلُ أَيْضًا . » وَجَرى نَحْوَ ماسْكيو لِيَضْرِبَهُ بِٱلمُسَدَّسِ ، فَصَرَخَ ماسْكيو آمِرًا ٱلجُنودَ : « هَيَّا ! هَيَّا ! أَسْرِعوا وَأَطْلِقوا رَصاصَكُمْ قَبْلَ أَنْ يُطْلِقَ عَلَيَّ رَصاصَةً . » هُنا انْطَلَقَتْ رَصاصَةٌ مِنْ أَعْلى وَأَصابَتْ ماسْكيو في جَبْهَتِهِ فَخَرَّ صَريعًا عَلى ٱلحَشائِشِ ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ الزَّقيرُ .

قالَ الزَّقيرُ : « هَيَّا ، هَيَّا إِلى ٱلجانِبِ الَّذي عَلى يَسارِنا ، وَالْتَصِقْ بِالصَّخْرِ فَلَنْ يُصيبوكَ مادُمْتَ تَحْتَمي بِهِ . » وَأَخَذَ يَعْدو . أَمَّا أَنا فَسَقَطْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَلَمْ أَقْوَ عَلى التَّحَرُّكِ ، وَشَعَرْتُ بِآلامٍ مُبَرِّحَةٍ في ساقِيَ ٱلْيُسْرى .

عادَ إِلَيَّ الزَّقيرُ قائِلًا : « يا إِلٰهي ! لَقَدْ أَصابوكَ . » ثُمَّ حَمَلَني بَيْنَ ذِراعَيْهِ كَما لَوْ كُنْتُ طِفْلًا ، غَيْرَ مُبالٍ بِالطَّلَقاتِ ٱلمُتَوالِيَةِ الَّتي كانَتْ تَنْهالُ عَلَيْنا ، وَأَسْرَعَ بي إِلى ما وَراءَ الصُّخورِ .

ٱلفَصْلُ الثَّاني عَشَر

الصُّعودُ إِلى ٱلقِمَّةِ

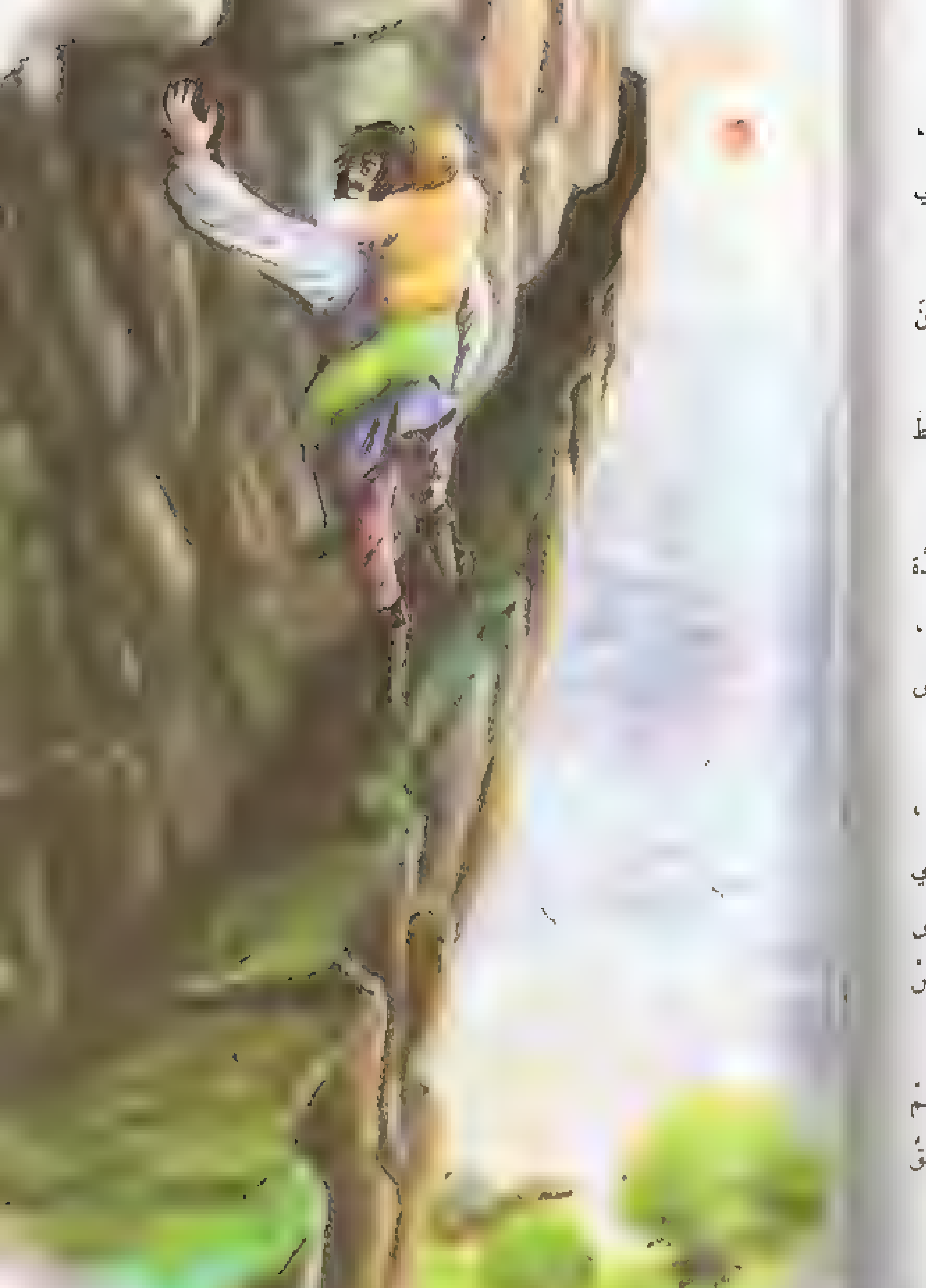
نَجَوْنا ، وَلٰكِنْ إِلى حينٍ — إِلى أَنْ يَصْدُرَ ٱلأَمْرُ لِلْجُنودِ بِالنُّزولِ إِلَيْنا وَالقَبْضِ عَلَيْنا وَلَمْ يَكُنْ مَعَنا سِوى مُسَدَّسٍ فارِغٍ ، وَعِنْدَ أَقْدامِنا كانَتْ تَرْقُدُ جُثَّةٌ هامِدَةٌ .

بَدَأَ الزَّقيرُ ٱلكَلامَ فَسَأَلَني : « أَتَسْتَطيعُ ٱلوُقوفَ ياجون ؟ هَلْ بِساقِكَ كَسْرٌ ؟ »

قُلْتُ : « لا أَدْري ، وَلٰكِنِّي لا أَسْتَطيعُ ٱلوُقوفَ ، وَأَشْعُرُ بِأَلَمٍ شَديدٍ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّ الدِّماءَ قَدْ مَلَأَتْ حِذائي . »

فَحَصَ الزَّقيرُ ساقي ، وَبِالرَّغْمِ مِنْ لُطْفِهِ في ٱلفَحْصِ ، فَإِنَّني شَعَرْتُ بِآلامٍ مُبَرِّحَةٍ . قالَ : « نَعَمْ لَقَدْ كُسِرَتِ ٱلعَظْمَةُ ، وَلٰكِنْ لَيْسَ لَدَيْنا وَقْتٌ لِعِلاجِها ٱلآنَ . دَعْني أُضَمِّدُها بِرِباطٍ ، ثُمَّ نُفَكِّرُ فيما نَعْمَلُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمامَنا الآنَ خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقَةً قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ ٱلجُنودُ ، وَإِذا بَقينا هُنا فَسَيَأْخُذونَكَ حَيًّا ثُمَّ يَشْنُقونَكَ في دورْشِسْتَر . وَأَنْتَ لاتَسْتَطيعُ أَنْ تُقاتِلَ وَأَنْتَ مَكْسورُ السَّاقِ . »

انْتابَني شُعورٌ بِٱلغَثَيانِ مِنْ شِدَّةِ ٱلأَلَمِ . وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّني ما زِلْتُ في نُزُلِ وايط ، أَوْ في بَيْتِ خالَتي . وَشَجَّعَني الزَّقيرُ قائِلًا : « لاتَيْأَسْ يابُنَيَّ ، فَهُناكَ سَبيلٌ لَمْ نَطْرُقْهُ بَعْدُ ، وَلَوْ كُنْتَ سَليمَ السَّاقَيْنِ لَأَسْرَعْنا إِلَيْهِ . وَمَعَ ذٰلِكَ تَجَلَّدْ



وَدَعْنا نُحاوِلُ ٱلآنَ . أمامنا دَرْبٌ ضَيِّقٌ لا يَعْرِفُهُ ٱلحُسودُ يُؤَدّي إلى قِمَّةِ هُورْهِدْ ، وَلَمْ أَسْمَعْ بِأَحَدٍ سَلَكَهُ مِنْ قَبْلُ لِشِدَّةِ ضيقه ووُعورته . دَعْني أَحْمِلْكَ ، وَفي ٱلأماكِنِ ٱلَّتي لا تَسْمَحُ بِذلك حاوِلْ أَنْ تَزْحَفَ عَلى رُكْبَتَيْكَ ويدَيْكَ . »

كانَتْ مُخاطرةً رَهيبةً ، إلّا أنَّها كانَتِ ٱلفُرْصَةَ ٱلوحيدة الباقية أمامنا ، وكانَ عَلَيْنا أَنْ نَغْتَنِمَها .

قُلْتُ : « أَوّاهُ ياعَزيزي إلْزِفير ، هَلُمَّ بنا إلَيْهِ بِسُرْعَةٍ ، فَخَيْرٌ لنا أَنْ نَسْقُطَ على الصَّخْرةِ وَنَموت مِنْ أَنْ يَقْبِضَ عَلَيْنا ٱلحُسودُ وَيُعْدِم . »

حاولْتُ أَنْ أَقِفَ ، فَلَمْ أُفْلِحْ ، و سَقَطْتُ عَلى ٱلأَرْضِ صارِخًا مِنْ شِدَّةِ ٱلأَلَمِ ، فَحَمَلَني إلْـزِفير بَيْن ذِراعَيْهِ ورأسي فَوْقَ كَتِفِهِ أَتطَلَّعُ إلى ٱلخَلْفِ ، وٱتَّجَهَ نَحْوَ ٱلدَّرْبِ الضَّيِّقِ . وَأَلْقَيْتُ نظرةً أخيرةً على ماسْكيو ، وَهُوَ مُلْقًى على ٱلأَرْضِ ووَجْهُهُ نَحْوَ السَّماءِ .

وَضَعَني إلْـزِفير بُرْهةً على ٱلأَرْضِ لِيَسْتَريحَ قَبْلَ أَنْ يَبْدأَ في الصُّعودِ ، ونَظَرْتُ إلى الدَّرْبِ فهالني ما رأَيْتُ . رَأَيْتُ دَرْبًا يَتَّسِعُ بَعْضَ ٱلاتِّساعِ في بدايتِهِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ في الضِّيقِ شيْئًا فشيْئًا ، حتّى لَيَبْدو مِثْلَ خطٍّ مرْسومٍ على وَجْهِ الصَّخْرِ . وكانَتْ هُناكَ رائحةٌ كريهةٌ تَنْبَعِثُ مِنْ بَقايا جُثَّةِ بَقَرةٍ سقَطَتْ مِنْ أَعْلاهُ .

أَلْحَحْتُ عَلى إلْزِفير كَيْ يَتْرُكَني وَيَنْجُو بِنَفْسِهِ ، فَقالَ : « هيَّا ! هيّا ! لَمْ يَعُدْ هُناكَ مجالٌ لِتَغْيير خُطَّتِنا ، وَلَمْ يَبْقَ أمامَنا سوى خَمْسَ عَشْرَةَ دَقيقةً وَيَلْحَقُ

بِنا آلجُنودُ . وَإذا ارْتَقَينا آلقِمَّةَ فَسَوْفَ نُوَفِّرُ ساعةً بِأَكْمَلِها ، لِأَنَّ آلجُنودَ سَيُضَيِّعونَ بَعْضَ آلوَقْتِ ، بَعْدَ آلعُثورِ على جُثَّةِ ماسْكيو . هَيَّا أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ وَلا تَفْتَحْهُما حَتَّى أُخْبِرَكَ . »

بَعْدَ لَحْظَةٍ تَرَكْنا الشَّاطِئَ وَبَدَأَ إِلْزِقير يَتَسَلَّقُ الصَّخْرَ ، وَكانَ يَتَحَسَّسُ الدَّرْبَ خُطْوَةً خُطْوَةً بِقَدَمَيْهِ . وَلَبِثْتُ مَحْمولاً مُغْمَضَ آلعَيْنَيْنِ ، حَتَّى وَصَلْنا إلى ارْتِفاعٍ عالٍ فَشَعَرْتُ بِتَغَيُّرٍ في سُرْعَةِ الرِّيحِ ، وَأَخَذَتْ خُطواتُ إِلْزِقير تَتَباطَأُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ . وَأَخيرًا قالَ : « جون ! سَأَتَوَقَّفُ هُنا قَليلاً ، وَلٰكِنْ لا تَفْتَحْ عَيْنَيْكَ حَتَّى آمُرَكَ بِذٰلِكَ . » وَوَضَعَني على آلأَرْضِ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ حَديثَهُ قائِلاً :

« الدَّرْبُ هُنا ضَيِّقٌ جِدًّا وَلا يَسْمَحُ لي بِحَمْلِكَ ، وَعَلَيْكَ أَنْ تَزْحَفَ وَحْدَكَ ثَبِّتْ نَظَرَكَ عَلى الصَّخْرِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَنْظُرَ إلى أَسْفَلَ . »

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَوَجَدْتُ دَرْبًا لايَتَجاوَزُ اتِّساعُهُ قَدَمًا واحِدةً . وَبَدَأْتُ أَزْحَفُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَيَدَيَّ ، وَكانَتِ آلآلامُ آلمُبَرِّحَةُ في ساقي تَتَضاعَفُ كُلَّما جَرَرْتُها خَلْفي .

صَرَخَ إِلْزِقير : « أَسْرِعْ ! أَسْرِعْ ! » وَكانَ إذا سَبَقَني تَوَقَّفَ لِأُدْرِكَهُ . وَعِنْدَما اتَّسَعَ الطَّريقُ بَعْضَ الشَّيْءِ انْحَنَى وَتَسَلَّقْتُ ظَهْرَهُ ثُمَّ نَهَضَ واقِفًا وَمَضَى في سَيْرِهِ .

نَظَرْتُ إلى أَسْفَلَ وَرَأَيْتُ آلبَحْرَ عَلى بُعْدٍ سَحيقٍ . وَكانَتِ الطُّيورُ تَطيرُ تَحْتَنا . وَتَذَكَّرْتُ آلبَقَرَةَ آلَّتي ماتَتْ نَتيجةَ سُقوطِها فَصَرَخْتُ مِنَ آلخَوْفِ . وَتَوَقَّفَ إِلْزِقير وَدَفَعَني لِأَسْفَلَ فَانْبَطَحْتُ وَانْبَطَحَ مَعي قائِلاً . « أَغْمِضْ عَيْنَيْكَ

وَعُدَّ : واحِد ، إثْنين ، ثَلاثة حَتَّى أَعْرِف . . . »

وَبَدا لي صَوْتُهُ بَعيدًا جِدًّا ، ثُمَّ عادَ يَقولُ : « لَقَدِ اسْتَغْرَقْنا عَشْرَ دَقائِقَ كَيْ نَصِلَ إلى هُنا ، وَلايَزالُ أَمامَنا خَمْسُ دَقائِقَ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَصِلَ آلجُنودُ إلى الشَّاطِئِ ، وَلَعَلَّهُمْ تَرَكوا واحِدًا مِنْهُم فَوْقَ آلقِمَّةِ ، وَلٰكِنِّي لا أُرَجِّحُ ذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ لا يَعْرِفونَ هٰذا الدَّرْبَ . أَمامَنا آلآنَ خَمْسونَ مِتْرًا فَقَطْ . جون ! لا تَخْذُلْني بِخَوْفِكَ هٰذا . إذا سَقَطْتَ جَذَبْتَني مَعَكَ . ثَبِّتْ نَظَرَكَ عَلى آلأَرْضِ وَهَيَّا بِنا ، وَإِلَّا فَسَنَهْلِكُ إذا بَقينا هُنا دَقيقةً واحِدةً . »

قُلْتُ : « لا أَقْدِرُ ! لا أَقْدِرُ ! »

قالَ : « لَقَدْ وَصَلوا آلآنَ إلى الشَّاطِئِ وَوَجَدوا جُثَّةَ ماسْكيو ، وَماهِيَ إِلَّا دَقيقةٌ أُخْرَى حَتَّى يَرَوْنا . »

ما أَغْرَبَ تَكْوينَ فِكْرِ آلإِنْسانِ وَشُعورِهِ ؛ فَآلخَوْفُ آلأَكْبَرُ يَطْغَى عَلى الخَوْفِ آلأَصْغَرِ . فَبَعْدَ سَماعي كَلِماتِهِ زايَلَني آلخَوْفُ مِنَ السُّقوطِ مِنْ عَلٍ فَتَحْتُ عَيْنَيَّ وَبَدَأْتُ أَتَقَدَّمُ زاحِفًا عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ . وَشَجَّعَني إِلْزِقير قائِلاً : « حَسَنًا ، حَسَنًا . الباقي خَمْسونَ مِتْرًا أُخْرَى ، وَمَتَى اجْتَزْتَ تِلْكَ النَّاصِيةَ حَمَلْتُكَ مَرَّةً أُخْرَى . وَسَنَنْجَحُ بِإِذْنِ اللهِ . »

وَبَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ بَلَغْنا آلقِمَّةَ .



اَلفَصْلُ الثَّالِثَ عَشَرَ

اَلكَهْفُ

كانَ ٱلوَقْتُ مُبَكِّرًا وَقَدْ سَطَعَتِ الشَّمْسُ فَوْقَ سَطْحِ ٱلبَحْرِ ورَقَدنا على ٱلحَشائِشِ لِنَلْتَقِطَ أَنْفاسَنا وَنَسْتَرِيحَ بَعْدَ مُغامَرَتِنا ٱلمُرْعِبَةِ .

نَهَضَ ٱلزِّقِيرُ كَمَنْ هَبَّ مِنْ نَوْمٍ ، وَقالَ « يَجِبُ أَنْ نُواصِلَ السَّيْرَ لا يَزالُ أَمامَ ٱلجُنودِ وَقْتٌ قَبْلَ أَنْ يَصِلوا ، لكِنْ يَجِبُ أَلاّ يَجِدوا لَنا أَثَرًا هُنا كَما أَنَّ ساقَكَ في حاجَةٍ إِلى عِلاجٍ ، وَأَعْرِفُ كَهْفًا ٱسْمُهُ كَهْفُ جوزيف يَصْلُحُ أَنْ يَكونَ مَخْبَأً نُقيمُ فيهِ . هَيّا بِنا إِلَيْهِ ، فَقَدْ يَسْتَغْرِقُ ٱلوُصولُ إِلَيْهِ طَوالَ ٱلْيَوْمِ لأَنَّهُ يَبْعُدُ نَحْوَ أَحَدَ عَشَرَ كيلومِتْرًا . وأَنا رَجُلٌ كَبُرَتْ سِنُّهُ ، وأَنْتَ صَبِيٌّ غَيْرُ خَفيفِ ٱلوَزْنِ » وَٱبْتَسَمَ وَمَدَّ لي يَدَيْهِ ثُمَّ حَمَلَني وبَدَأَ ٱلمَسيرَ .

مَضَى بَعْضُ ٱلوَقْتِ ، وَٱشْتَدَّتْ حَرارَةُ الشَّمْسِ وزادَتْ الآمي ، وبَعد الزِّقيرُ وأَخَذَ يُبْطِئُ في السَّيْرِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتّى بَلَغْنا جِدارًا قَوِيًّا مُتَهَدِّمًا ، فَوَضَعَني على ٱلأَرْضِ وَأَلْقَى بِنَفْسِهِ جانِبي . وبَعْدَ دَقائِقَ مَعْدودَةٍ كانَ يَغُطُّ في النَّوْمِ .

جَلَسْتُ مُسْنِدًا ظَهْري إِلى ٱلجِدارِ أَتَأَمَّلُ فيما حَدَثَ . وبَدَأَ النَّوْمُ يُداعِبُ عَيْنَيَّ أَيْضًا . وَحاوَلْتُ بِكُلِّ جَهْدي أَنْ أَبْقَى ساهِرًا لِلْحِراسَةِ كَما كَلَّفَني ٱلزِّقيرُ ، وَلٰكِنَّ مُحاوَلاتي باءَتْ بِٱلفَشَلِ . ونِمْتُ لأَسْتَيْقِظَ على صَوْتِ عَرَبَةٍ مارَّةٍ قَريبَةٍ . وهَمَمْتُ بِإِيقاظِ ٱلزِّقيرِ ، فَوَجَدْتُهُ يَقِظًا ، و أَوْمَأَ إِلَيَّ أَنْ أَلْزَم

الصَّمْتَ ، ومَضى يَسْتَطْلِعُ ٱلأَمْرَ . وَعادَ بَعْدَ قَليلٍ لِيَقولَ : « إِنَّهُ غُلامٌ يَصْطادُ الطُّيورَ . وَلَنْ نَبْرَحَ مَكانَنا إِلاَّ إِذا ٱتَّجَهَ ناحِيَتَنا . »

بَعْدَ بُرْهَةٍ قالَ إِلْزِفير : « إِنَّ ٱلغُلامَ مُقْبِلٌ نَحْوَنا . عَلَيْنا أَنْ نُظْهِرَ أَنْفُسَنا » وَنَهَضَ فَرَآهُ ٱلغُلامُ ، وَبَدا كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَجْري هَرَبًا . وَسَأَلَ إِلْزِفير ٱلغُلامَ : « ماذا تَصْنَعُ هُنا ؟ »

أَجابَ ٱلغُلامُ : « أَصْطادُ الطُّيورَ لِلْمُزارِعِ تُوب . »

فَسَأَلَهُ إِلْزِفير : « أَتَسْمَحُ لي بِبَعْضِ ٱلبارودِ أَصْطادُ بِهِ أَرْنَبًا لِعَشائِنا ؟ »

قالَ الغُلامُ : « آسِفٌ يا سَيِّدي فَلَيْسَ مَعي إِلاَّ ٱلقَليلُ ، وَأُريدُ صَيْدَ بَعْضِ الطُّيورِ وَإِلاَّ نالَني ٱلعِقابُ مِنَ ٱلمُزارِعِ . »

رَدَّ إِلْزِفير : « أَعْطِني بَعْضَ مامَعَكَ وَخُذِ الثَّمَنَ . » وَأَبْرَزَ إِلْزِفير قِطْعَةً كَبيرةً مِنَ النُّقودِ .

لَمَعَتْ عَيْنا ٱلغُلامِ عِنْدَ رُؤْيَةِ قِطْعَةِ النُّقودِ ، وَقالَ لَهُ إِلْزِفير : « سَأُعْطيكَ قِطْعَتَيْنِ إِذا أَعْطَيْتَني كُلَّ ما مَعَكَ مِنَ ٱلبـارودِ . »

وَسُرْعانَ ماوافَقَ ٱلغُلامُ وَسَأَلَهُ إِلْزِفير . « هَلْ تَبيعُني ٱلبُنْدُقِيَّةَ أَيْضًا ؟ »

أَجابَ ٱلغُلامُ : « لا . هٰذا غَيْرُ مُمْكِنٍ . فَهُناكَ شائِعَةٌ بِأَنَّ بَعْضَ ٱلمُهَرِّبينَ يَخْتَبِئونَ في هٰذِهِ الجِهاتِ ، وَأَنَّ ٱلجُنودَ يَجِدُّونَ في أَثَرِهِمْ . »

أَجابَهُ إِلْزِفير : « هٰذا ما سَمِعْتُهُ ، وَهٰذا هُوَ سِرُّ رَغْبَتي في شِراءِ ٱلبُنْدُقِيَّةِ ، حِمايَةً لِنَفْسي . أَمَّا أَنْتَ ، فَإِنَّكَ غُلامٌ صَغيرٌ لَنْ يُفَكِّرَ ٱلمُهَرِّبونَ في إِيذائِكَ ، وَلَسْتَ في حاجَةٍ لِبُنْدُقِيَّـةٍ . »

وَأَخْرَجَ إِلْزِفير قِطْعَةَ نُقودٍ ذَهَبِيَّةٍ ، أَسْرَعَ الصَّبِيُّ يَتَناوَلُها وَيَكِرُّ راجِعًا ، بَعْدَ أَنْ أَعْطى إِلْزِفير ٱلبُنْدُقِيَّـةَ .

تَوَجَّسْتُ شَرًّا مِنْ ذٰلِكَ الصَّبِيِّ ، وَتَبِعْتُهُ بِنَظَري حَتّى تَوارى عَنْ عَيْنَيَّ وكانَ قَدْ بَدَأَ السَّيْرَ بِخُطًى عادِيَّةٍ ثُمَّ أَخَذَ يَعْدو بِسُرْعَةٍ . فَأَيْقَنْتُ أَنَّهُ ذَهَبَ لِيُخْبِرَ ٱلجُنودَ عَـنّا .

قالَ إِلْزِفير : « هَيّا ، لَقَدْ زالَتْ شِدَّةُ ٱلحَرِّ وَلَمْ يَبْقَ أَمامَنا سِوى ٱلقَليلِ . »

حَمَلَني وَأَخَذَ يَسيرُ مُسْـرِعًا بِمُحاذاةِ ٱلجِدارِ ، وَبَعْدَ أَنْ قَطَعْنا مَسافَةً مِنَ الطَّريقِ بَيْنَ ٱلحُقولِ وَٱلمَزارِعِ وَجَدْنا نَفْسَيْنا فَوْقَ مُروجٍ خَضْراءَ . ثُمَّ وَصَلْنا إِلى تَلٍّ عَلَيْهِ بَعْضُ ٱلبُيوتِ ٱلقَديمَةِ ٱلمَهْجورَةِ ٱلمَبْنِيَّةِ بِالصُّخورِ ، وَقَدْ تَناثَرَتْ صُخورُها وَتَهَدَّمَتْ مُنْذُ سِنينَ عَديدَةٍ . وَرَأَيْنا بِالتَّلِّ فَجْوَةً تَحْتَوي عَلى بَعْضِ الدَّرَجاتِ ٱلهابِطَةِ إِلى أَسْفَلَ .

وَضَعَني إِلْزِفير على ٱلأَرْضِ قائِلاً : « الحَمْدُ لِلّٰهِ ، هٰذا هُوَ مَدْخَلُ كَهْفِ جوزيف . سَنَخْتَبِئُ هُنـا حَتّى تَبْـرَأَ ساقُـكَ ، وَلَنْ يَجِـدونـا أَبَدًا . إِنَّ هٰذِهِ الدَّرَجاتِ تَقودُ إِلى سِرْدابٍ مَنْحوتٍ في قَلْبِ الصَّخْرِ ، وَفي نِهايَتِهِ كَهْفٌ ذو

فُتْحةٍ تُطِلُّ على ٱلبَحْرِ ، وَسَيكونُ ذلِكَ ٱلكَهْفُ مَخْبَأَنا . »

اسْتَرَحْنا قَليلاً ثُمَّ حَمَلَني بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَأَخَذَ يَهْبِطُ الدَّرَجَ حَتَّى وَصَلْنا إلى أَسْفَلِهِ ، وَكانَ الظَّلامُ يَعُمُّ ٱلمَكانَ . وَاتَّجَهَ إلْزِقير إلى ٱليَمينِ نَحْوَ فُتْحةٍ في الطَّريقِ كَمَنْ يَعْرِفُ السَّبيلَ وَ يَأْلَفُهُ ، وَكانَ يَتْرُكُني مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ رَيْثَما يَسْتَطْلِعُ الطَّريقَ . وَأَخيرًا وَصَلْنا إلى ٱلكَهْفِ حَيْثُ كانَ هُناكَ ضَوْءٌ خافِتٌ يَنْبَعِثُ مِنْ فُتْحةٍ في نِهايَتِهِ . وَشَعَرْتُ بِهَواءٍ بارِدٍ نَقِيٍّ يُبَشِّرُ بِقُرْبِ ٱلبَحْرِ .

اَلفَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ

التَّماثُلُ لِلشِّفاءِ

وَضَعَني إلْزِقير فَوْقَ رِمالٍ جافَّةٍ ناعِمَةٍ . قالَ : « يَجِبُ أَنْ تَرْقُدَ هُنا لِمُدَّةِ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ ، وَ إذْ كُنْتُ أَعْلَمُ إنَّهُ لَيْسَ فِراشًا وَثيرًا ، إلاَّ أَنِّي مُتَأَكِّدٌ أَنَّ هُناكَ ماهُوَ أَسْوَأُ مِنْ هذا بِكَثيرٍ . »

كانَ الصُّداعُ يَكادُ يَقْتُلُني ، وَكُنْتُ أَشْعُرُ بِظَمَإٍ شَديدٍ ، فَأَحْضَرَ إلْزِقير بَعْضَ ٱلماءِ في قُبَّعَتِهِ فَشَرِبْتُ ، وَبَعْدَها لَمْ أَعِ ماحَدَثَ حَوْلي . فَقَدِ اشْتَدَّتْ بي وَطْأَةُ ٱلمَرَضِ وَكُنْتُ أَهْذي وَأَثورُ حَتَّى اضْطُرَّ إلْزِقير أَنْ يُمْسِكَ بي وَيَمْنَعَني مِنَ النُّهوضِ . وَقَضَيْتُ عَشَرَةَ أَيَّامٍ كانَ إلْزِقير يَقومُ خِلالَها بِتَمْريضي كَما تَفْعَلُ ٱلأُمُّ ٱلحَنونُ عِنْدَ مَرَضِ وَلَدِها . وَلَمْ يَتْرُكِ ٱلكَهْفَ قَطُّ طَوالَ تِلْكَ ٱلمُدَّةِ إلاَّ لِلْبَحْثِ عَنِ الطَّعامِ .

جَعَلَني ٱلمَرَضُ شَخْصًا هَزيلاً ضَعيفًا ، وَكُنْتُ أُمْضي ٱلوَقْتَ مُسْتَلْقِيًا عَلى ٱلأَرْضِ ، خالِيَ الذِّهْنِ ، بَعيدًا عَنِ ٱلهُمومِ ، آكُلُ ما يُقَدَّمُ لي وَلا أُفَكِّرُ في شَيْءٍ .

لَمْ يَعْلَمْ بِمَكانِنا أَحَدٌ سِوى راتْسي ، فَقَدْ كانَ يَأْتينا بِٱلأَنْباءِ والطَّعامِ وكانَ ٱلجُنودُ مُسْتَمِرِّينَ في ٱلبَحْثِ عَنَّا في كُلِّ مَكانٍ وفي ٱلبِدايَةِ عِنْدَما وجدوا جُثَّةَ ماسْكيو ، ظَنُّوا أَنَّنا سَقَطْنا في ٱلبَحْرِ ، وَلكِنْ عِنْدَما رَوى الصَّبِيُّ

حكاية الرَّجُلِ والصَّبِيِّ اللَّذَيْنِ قابَلَهُما وباعَ أَحَدَهُما البُنْدُقِيَّةَ والبارودَ ، وأَنَّ رِجْلَ الصَّبِيِّ كانَتْ مَكْسورةً ، أَيْقَنوا أَنَّهُ لابُدَّ أَنْ نكونَ نَحْنُ الشَّخْصَيْنِ اللَّذَيْنِ يَبْحَثونَ عَنْهُما . وأَلْصَقَ الجُنودُ تُهْمَةَ قَتْلِ ماسْكيو بِالزِّقير ، وخُصِّصَتْ مُكافأةٌ قَدْرُها خَمْسونَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَجِدُهُ أَوْ يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وعِشْرونَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَدُلُّ عَلَيَّ .

تعاقَبَتِ الأيّامُ ، واسْتَرْدَدْتُ عافِيَتي شَيْئًا فَشَيْئًا . وبَدَأَ الزِّقير يُفَكِّرُ في الرَّحيلِ . ورَأى أَنْ نَذْهَبَ إلى نيوبورت ومِنْها نُبْحِرُ الى فَرَنْسا . وقَرَّرْنا أَنْ نَرْكَبَ السَّفينةَ نوناڤِنْشِر – سفينةَ المُهَرِّبين – ونَبْقى حَتّى يَهْدَأَ الحالُ أَوْ يَتَوَقَّفَ البَحْثُ عَنّا .

وفي لَيْلَةِ رَبيعٍ عاصِفَةٍ ذَهَبَ الزِّقير إلى بَلْدَةِ بُول حَيْثُ كانَتْ تَرْسو السَّفينةُ لِيُقابِلَ البَحّارةَ وَيَتَّفِقَ مَعَهُمْ .

وبَيْنَما كُنْتُ جالِسًا أَمامَ الكَهْفِ في انْتِظارِهِ أَتَطَلَّعُ إلى البَحْرِ وأَرْقُبُ الأَمْواجَ وَهِيَ تَرْتَطِمُ بِالصَّخْرِ ، انْتابَتْني الهَواجِسُ وتَخَيَّلْتُ أَنّي أَرى رَجُلًا يَرْقُدُ عَلى الشّاطِئِ ، وأَنَّ وَجْهَ ذلِكَ الرَّجُلِ هو وَجْهُ ماسْكيو يَضْحَكُ ساخِرًا مِنّي . وأَسْرَعْتُ الى داخِلِ الكَهْفِ وأَضَأْتُ الشَّمْعَةَ ثُمَّ أَخْرَجْتُ وَرَقَةَ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ أَقْرأُ فيها بِتَوْقيعِ جُون مُوهُون :

قَدْ يَحْيا الإنْسانُ ثَمانينَ عامًا
وَتَقْطَعُ قَدَماهُ دَرْبَ الدُّموعِ

قُمْ وانْهَلْ مِنْ بِئْرِ المُتْعَةِ والهَناءِ
فالمَوْتُ يَأْتي مِنَ الشَّمالِ أو
الجَنوبِ ، في الظَّهيرةِ أو المَساءِ

سَمِعْتُ صَوْتَ خُطُواتٍ في المَمَرِّ مُقْبِلةٍ نَحْوي ، ولَمْ تَكُنْ خُطُواتِ الزِّقير لأَنَّ وَقْتَ عَوْدَتِهِ مِنْ بُول لَمْ يَكُنْ قَدْ حانَ بَعْدُ ، علاوةً على أَنَّنا كُنّا مُتَّفِقَيْنِ على أُنْشودةٍ يُرَدِّدُها عِنْدَما يَأْتي حَتّى أَعْرِفَ أَنَّهُ القادِمُ .

تَرَكْتُ الشَّمْعةَ وتَناوَلْتُ البُنْدُقِيَّةَ ، وكانَتْ بِجانِبي وهَدَأَتِ العاصِفَةُ ، وأَخَذَ صَوْتُ الأَقْدامِ يَقْتَرِبُ شَيْئًا فَشَيْئًا ، ثُمَّ عَثَرَتْ قَدَمُ الرَّجُلِ بِحَجَرٍ فَتَمْتَمَ بِكَلِماتٍ غاضِبَةٍ ، وصِحْتُ : « مَنِ القادِمُ ؟ أَجِبْ وَإلّا أَطْلَقْتُ عَلَيْكَ النّارَ »

أَجابَ : « أَنا راتْسي يا جُون ، فهلْ تُطْلِقُ النّارَ على أَعَزِّ صَديقٍ لك بِالبُنْدُقِيَّةِ الَّتي أَعْطاكَ إِيّاها ؟ »

تَرَكْتُ البُنْدُقِيَّةَ ، وأَضَأْتُ الشَّمْعةَ وتَبَيَّنْتُ راتْسي واقِفًا أَمامي وَقَدْ بَلَّلَتْهُ الأَمْطارُ . وفَرِحَ وتَهَلَّلَ وَجْهُهُ عِنْدَما رَآني . وأَمْسَكَ بِيَدي قائِلًا . « جُون ! لَقَدْ تَغَيَّرْتَ في شَهْرَيْنِ كُنْتَ غُلامًا وأَصْبَحْتَ رَجُلًا . حينَما صَحِبْتُكَ معًا مُنْذُ شَهْرَيْنِ إلى هُورْهِدْ كُنْتَ صَبِيًّا وما كانَ يَنْبَغي أَنْ تَكونَ مَعَنا وَقْتَها ، فلمْ يَكُنْ ذلِكَ عَمَلًا لائِقًا بِالأَوْلادِ . »

أَجَبْتُ : « كَلّا يا راتْسي . إنَّ مَكاني دائِمًا بِجانِبِ الزِّقير . فَحَيْثُما يَذْهَبْ

أَذْهَبُ . » وَجَلَسْتُ لِأَنَّ ساقِي آلَمَتْني .

عادَت الرِّيحُ إلى آلهُبوبِ فانْطَفَأَت الشَّمْعَةُ . قالَ راتْسي : « يا لَها مِنْ لَيْلةٍ لَيْلاء ! »

قُلْتُ : « نَعَمْ ! لِيَكُنِ اللهُ في عَوْنِ آلبَحّارةِ آلمَساكين . »

قالَ راتْسي : « غدًا ولاشكَّ ، سَتكونُ هُناكَ بَعْضُ آلمراكِبِ آلمُحطَّمةِ ، مُلْقاةً على الشَّاطِئِ في مُونْفليت . هيَّا نُشْعِلُ نارًا . » وَجمعْنا بعْضَ آلأخْشابِ وأَوْقَدْنا النَّارَ .

قالَ راتْسي : « ما أَمْتعَ الدِّفْءَ ، لقَدْ كِدْتُ أموتُ بَرْدًا ، وَلكنِّي حزينٌ فهذا آلمَكانُ يعودُ بذاكِرَتي إلى أرْبَعين عامًا مضتْ ، عنْدما كُنْتُ حديثَ آلعهْدِ بالتَّهْريب . فذاتَ صباحٍ بيْنما كُنْتُ أرْقُدُ على نفْسِ آلبُقْعةِ الَّتي تجْلسُ أنْتَ عليْها آلآنَ ، رَأَيْتُ سَفينةً فوْقَ مياهِ آلبَحْرِ تتقاذفُها الرِّياحُ ، وَأَخذَ مَنْ عليْها مِنْ رجالٍ ونساءٍ يُواصِلون آلموْتَ ويُصارِعون آلأمْواج ، ونحْنُ لاحَوْلَ لَنا ولا قوَّةَ ؛ ولَمْ نتمكَّنْ مِنْ مدِّ يدِ آلمُساعدةِ لَهُمْ . فقدْ حجبتِ آلأمْطارُ والظَّلامُ عنَّا رُؤْيتَهُمْ . وفي الصَّباحِ التَّالي علمْنا أنَّ السَّفينةَ فلوريد قدْ غرقتْ بمنْ علَيْها مِنْ رجالٍ ونساءٍ وأطْفالٍ . » ثُمَّ ناوَلَني راتْسي ورقةً قائلًا : « خُذْها واقْرأ . »

قَرأْتُ إعْلانًا عنْ مُكافأتَيْن ، إحْداهُما بمبْلغِ خمْسين جُنيْهًا لمنْ يجِدُ أوْ يُرْشِدُ إلى مَكانِ آلزَّقير ، وَآلأُخْرى بمبْلغِ عشْرين جُنيْهًا لمنْ يجدُ أوْ يُرْشِدُ إلى مَكاني .

قالَ راتْسي : « لا أحَدَ في مُونْفليت يعْرِفُ أيْنَ أنْتُما غَيْري ، ولَوْ عَرَفوا فلَنْ يُفْشوا السِّرَّ أبدًا ، وَآلجُنودُ يُراقِبونَني أيْنَما ذَهَبْتُ . لذا يَجِبُ ألَّا أحْضُرَ هُنا ثانيةً . »

أخْبرْتُهُ عَنْ عَزْمِنا بالرَّحيلِ إلى فرَنْسا ، فانْتَهَجَ وصَمتَ لَحْظةً ، ثُمَّ قالَ : « إنَّ قَلْبي حزينٌ هذا آلمساءِ ، حزينٌ عَلى آلأيَّامِ الطَّيِّبةِ الَّتي وَلَّتْ ولَنْ تَعودَ ،



وَلَنْ يَعودَ إِلْزِقير إلى مُونْفِليت ؛ وَالنُّزُلُ مُوصَدٌ مُنْذُ مَصْرَعِ ماسْكيو ، و غْريس تَبْدو كَالشَّبَحِ الهائِمِ ، بَعْدَ ما أَخْبَرَها الرِّجالُ بِأَنَّكَ وَ إِلْزِقير قَتَلْتُما أَباها ، وَ لٰكِنَّها لَمْ تُصَدِّقْهُمْ وَقالَتْ : « مُسْتَحيلٌ ! إنَّ إِلْزِقير لا يُمْكِنُ أَنْ يَقْتُلَ رَجُلًا أَعْزَلَ مِنَ السِّلاحِ مُوثَقَ ٱلْيَدَيْنِ وَٱلْقَدَمَيْنِ ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَحَ جُود بِذٰلِكَ . »

كانَ صَوْتُ راتْسي أَحْلى مِنَ ٱلْموسيقى في أُذُني . فَقَدْ أَثْلَجَ صَدْري وَبَعَثَ ٱلْفَرَحَ في نَفْسي ، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَذْهَبَ لِغْريس وَأُوَدِّعَها قَبْلَ سَفَري ، وَأُخْبِرَها بِكُلِّ شَيْءٍ .

نَظَرَ راتْسي إِلَيَّ مَلِيًّا ثُمَّ قالَ : « نَعَمْ ، إنَّها جَميلَةٌ وَإِنْ كانَتْ شاحِبَةَ اللَّوْنِ نَحيلَةً ، وَلَوْ كُنْتُما رَجُلًا وَامْرَأَةً ، لَكانَتْ لَكَ نِعْمَ الزَّوْجَةُ إذا رَضِيَتْ بِكَ زَوْجًا . » وَوَضَعَ بَعْضَ ٱلأَخْشابِ فَوْقَ النّارِ فَاشْتَعَلَتْ وَعلى ضَوْئِها رَأَيْتُ قِطْعَةً مِنَ ٱلْوَرَقِ مُلْقاةً عَلى ٱلأَرْضِ قَريبًا مِنْ قَدَمِ راتْسي . إنَّها وَرَقَةُ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ الَّتي كُنْتُ أَقْرَؤُها عِنْدَما سَمِعْتُ صَوْتَ أَقْدامٍ في السِّرْداب .

اِلْتَقَطَ راتْسي ٱلْوَرَقَةَ وَقَرَأَها ، ثُمَّ قالَ : « ما أَرْدَأَ هٰذِهِ ٱلْكِتابَةَ ، وَما أَجْهَلَ مَنْ كَتَبَها . لَقَدْ مَيَّزَ أَحْرُفَ بَعْضِ ٱلْكَلِماتِ دونَ مُبَرِّرٍ . » أَعْطاني ٱلْوَرَقَةَ ، وَنَهَضَ قائِلًا : « لا أَسْتَطيعُ ٱنْتِظارَ إِلْزِقير حَتّى يَعودَ . يَجِبُ أَنْ تُخْبِرَهُ بِضَرورَةِ رَحيلِكُما بِسُرْعَةٍ . » وَصافَحَني وَٱنْصَرَفَ .

أَخَذْتُ ٱلْوَرَقَةَ ، وَعُدْتُ أَتَأَمَّلُها ، وَكَلِماتُهُ تَرِنُّ في أُذُنَيَّ : « لَقَدْ مَيَّزَ أَحْرُفَ بَعْضِ ٱلْكَلِماتِ دونَ مُبَرِّرٍ :

« ثَمانينَ قَدَمًا مِنْ بِئْرِ الشَّمالِ »

وَفَجْأَةً وَضَحَ أَمامي اللُّغْزُ ، وَعَجِبْتُ مِنْ نَفْسي كَيْفَ لَمْ أَهْتَدِ لِلْحَلِّ مِنْ قَبْلُ . إنَّ ٱلْماسَةَ مُخَبَّأَةٌ في بِئْرٍ عَلى عُمْقِ ثَمانينَ قَدَمًا . أَوْ أَنَّ ٱلْبِئْرَ تَبْعُدُ ثَمانينَ قَدَمًا إلى الشَّمالِ . وَلٰكِنْ أَيُّ شَمالٍ هٰذا ؟ وَبَيْنَما أَنا أُفَكِّرُ غَلَبَني ٱلنُّعاسُ فَنِمْتُ .

اِسْتَيْقَظْتُ فَوَجَدْتُ النّارَ ما زالَتْ مُشْتَعِلَةً و إِلْزِقير يَجْلِسُ بِجانِبِها مُنْهَمِكٌ في طَهْوِ الطَّعامِ . قالَ : « أَنْتَ لا تَصْلُحُ لِلْحِراسَةِ ياجون . فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرَّةُ الثّانِيَةُ الَّتي أَجِدُكَ فيها نائِمًا عِنْدَما يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَبْقى مُسْتَيْقِظًا . »

كانَ فِكْري ما زالَ مَشْغولًا بِالْوَرَقَةِ وَبِما تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ مِنْ حَلٍّ . وَلَمّا حَدَّثْتُهُ عَنْها قالَ : « بارَكَ اللّٰهُ فيكَ يابُنَيَّ ! أَظُنُّكَ حَقًّا قَدِ اهْتَدَيْتَ إلى حَلِّ هٰذا اللُّغْزِ . وَلٰكِنْ أَيْنَ هٰذِهِ ٱلْبِئْرُ ؟ إنَّهُ لَيْسَ في مُونْفِليت بِئْرٌ بِهٰذا ٱلْعُمْقِ ، فَرُبَّما تَكونُ في غَيْرِ مونْفِليت . وَرُبَّما تَكونُ في قَلْعَةِ كاريسْبُروك ، حَيْثُ كانَ ٱلْمَلِكُ سَجينًا في حِراسَةِ ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ . وَقَدْ سَمِعْتُ عَنْ وُجودِ بِئْرٍ هُناكَ داخِلَ ٱلْقَلْعَةِ . هَيّا نَذْهَبُ إِلَيْها ، ولي في ٱلْقَرْيَةِ بَعْضُ ٱلأَصْدِقاءِ نَسْتَطيعُ أَنْ نَخْتَبِئَ في مَنازِلِهِمْ . كَما أَنَّنا سَنَكونُ في مَأْمَنٍ أَكْثَرَ مِمّا نَحْنُ عَلَيْهِ ٱلآنَ . »

هٰكَذا تَقَرَّرَ الرَّحيلُ إلى كاريسْبُروك بَدَلًا مِنْ فَرَنْسا . وَفي ٱلْيَوْمِ التّالي أَحْضَرَ إِلْزِقير سائِلًا بُنِّيًّا صَبَغَ بِهِ وَجْهي ، ثُمَّ حَلَقَ لِحْيَتَهُ وارْتَدَيْنا ٱلْمَلابِسَ ٱلْجَديدَةَ الَّتي أَحْضَرَها ، وَكانَتْ تُناسِبُ مُزارِعًا وَغُلامَهُ . وَنَظَرَ كُلٌّ مِنّا إلى ٱلآخَرِ ، وتَأَكَّدْنا مِنْ أَنَّهُ لَنْ يَعْرِفَنا أَحَدٌ ، ثُمَّ رُحْتُ أَمْشي جَيْئَةً وَذَهابًا لِتَقْوِيَةِ ساقي .

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَرَ

حَتّى عَوْدَتِكَ

لَمْ يَبْقَ سِوَى لَيْلَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ نُغَادِرَ مَخْبَأَنَا . وَكُنْتُ أَشْعُرُ بالأسى ، وتملّكتني رغبةٌ شديدةٌ في أنْ أرى غُريس قَبْلَ رحيلي . ولكنّي خَجِلْتُ مِنْ إبْداء تِلْكَ الرَّغْبة أمامَ إلْرقير . وبَيْنَما كُنّا جالِسَيْن على صَخْرةٍ عِنْدَ مَدْخَلِ الكَهْف نُراقِبُ أشعّةَ الشَّمْس الغارِبة ، رَأيْتُ الفُرْصةَ سانحةً فَقُلْتُ :

« عَزيزي إلْرقير . لَقَدْ أَنْقَذْتَ حياتي ، وقُمْتَ برعايتي طوالَ هذه المُدّة ولكنْ مازالَ لي طَلَبٌ واحدٌ أرْجوهُ منْكَ . آمُلُ أنْ تدعَني أخْرُجُ من الكهفِ وأسيرُ على الحَشائِشِ . لقدْ مَضَى عَلَيَّ شَهْرانِ لَمْ أرَ فيهما سِوى هذهِ الجُدْران الحجريّة ، وقَدْ تاقَتْ نَفْسي لِرُؤْيةِ العالَمِ الخارجيّ . »

قالَ إلْرقير : « صهٍ ياولَدي ! لاتقلْ إنّي أنْقَذْتُ حياتَك . فأنا الّذي عَرَّضْتُكَ للمَخاطِرِ . ولَوْلايَ لَكُنْتَ الآن ترْقُدُ فَوْقَ فِراشكَ في مُونْفليت هادِئَ البالِ ، بَدَلًا مِنْ أنْ تَتَوارَى بَيْنَ هذهِ الصُّخور . وَسَوْفَ أذْهَبُ اللّيْلةَ إلى أحَدِ البُيوتِ القَديمة القريبةِ منْ هُنا ، لآخُذَ شيئًا تَركَهُ لي راتْسي هُناك . ويُمْكنُكَ أنْ تَصْحَبَني وتَسْتَمْتِعَ بنسيمِ المساء . »

قُلْتُ : « لا يا إلْرقير . هذا لا يكْفيني ! دَعْني أذْهَبُ أبْعَدَ منْ هذا . أنْتَ تَعْلَمُ أنّي وُلِدْتُ في مُونْفليت وعشْتُ فيها طوالَ حياتي ، وَشَبَبْتُ على حُبِّها . فأنا أُحِبُّ كُلَّ شَجَرةٍ فيها ، وكُلَّ حَصاةٍ على أرْضِها ، وكُلَّ قَطْرة ماءٍ في غديرها . وأوَدُّ أنْ أُلْقيَ نَظْرةَ وَداعٍ أخيرةً على كُلِّ هذا . دَعْني أذْهَبُ إلى

مُونْفليت ، وكُنْ مُطْمَئِنًا فَلَنْ يَعْرِفَني أحَدٌ في زِيّي هذا ، وسَأعودُ إليْكَ مَساءَ الغَدِ . »

تأمّلني إلْرقير لَحْظةً وَهوَ صامِتٌ ، وكأنّهُ يَقْرَأُ ما في سَريرَتي ، ثُمّ قالَ :

« جُون ، لَقَدْ سمِعْتُ كَثيرًا عَنْ رِجالٍ خاطَروا بحَياتِهِمْ مِنْ أجْلِ المالِ أوْ مِنْ أجْلِ الحُبِّ أو البُغْض ، ولكنّي لَمْ أسْمَعْ قَطُّ عنْ شَخْصٍ ألْقى بنَفْسِهِ في المَخاطِرِ ليَحْظى برُؤْيةِ شجرةٍ أوْ حصاةٍ أوْ غديرٍ . عِنْدما يُولَعُ المرْءُ بحُبِّ مكانٍ أوْ مَدينةٍ مّا ، فهوَ بكُلِّ تأكيدٍ يُحِبُّ شخْصًا في ذلكَ المَكانِ أوْ في تِلْكَ المَدينة . قُلْ لي . أتُريدُ أنْ تودِّعَ الآنِسةَ أرْنُولد خالَتَكَ ؟ »

أجَبْتُهُ بالنَّفْي ، ثُمَّ أفْضَيْتُ إليْهِ بكُلِّ سِرّي . قالَ : « يا للْحَماقة ! ولكِنْ يجبُ أنْ لا أنْسى أنّي كُنْتُ يوْمًا مّا في مِثْلِ سِنّك . وإنّي أعْرِفُ فتاتَكَ ، وكثيرًا ماتَعَجَّبْتُ كَيْفَ أنْجَبَ رَجُلٌ مِثْلُ ماسْكيو ، ابْنةً مِثْلَ غُريس ! والآنَ أحْمَدُ اللهَ أنّهُ لَمْ يمُتْ بيَدي ! اذْهَبْ إلى أشْجارِكَ وحصاكَ وغديرِكَ ، وسأذْهَبُ مَعَكَ بَعْضَ الطَّريق ، ثُمّ أعودُ و أنْتظِرُك فإنْ لَمْ تَعُدْ هُنا عِنْدَ مُنْتَصَفِ لَيْلةِ الغَدِ ، فسأعْرِفُ أنّهُ قُبِضَ عَلَيْكَ ، وسأحاوِلُ مُساعَدَتَكَ »

صافَحْتُهُ ، وشَكَرْتُهُ بحَرارةٍ .

أخَذْنا مَعَنا بَعْضَ الخُبْزِ و اللَّحْمِ وَبَدَأْنا رِحْلَتَنا . وكانَ السِّرْدابُ مُظْلِمًا فَقادَني إلْرقير منْ يَدي ، وبَعْدَ فَتْرةٍ لاحَتِ السَّماءُ الزَّرْقاءُ فَوْقَ رَأْسي وكانَ بِها نَجْمٌ لامِعٌ يُطِلُّ عَلَيْنا . وشعرَ كلانا بجَمالِ الطَّبيعةِ ورَهْبةِ اللَّيْلِ ، لِذا مَشَيْنا في صَمْتٍ . ثُمّ توَقَّفْنا في سَيْرِنا عِنْدَ أحَدِ البُيوتِ القَديمةِ الّتي قالَ إلْرقير إنّ راتْسي تَرَكَ لَهُ فيهِ شَيْئًا . وأنْجَزَ إلْرقير حاجَتَهُ ، ثُمّ سِرْنا حَتّى وَصَلْنا

بيربك ، وهناك أعطاني المسدس الذي كان يملكه ماسكيو .

قال : « إليك هذا ياجون ولكن إياك ، إياك أن تستعمله إلا عند الضرورة القصوى ، وإذا استعملته فصوبه إلى نقطة منخفضة » .

أسرعت الخطى ووصلت المرتفع الذي يطل على مونفليت في نفس اللحظة التي بزغت فيها الشمس ، ومن هناك رأيت الغابة والمنزل العتيق والقرية بأجمعها . وظهر النزل ونهر فليت و البحر من على بعد وتملكني شعور غريب ، هو مزيج من الفرح والأسى والحنين ، عندما رأيت مونفليت مرة ثانية وبدأت حرارة الشمس في الارتفاع تحدثت طريقي في الغابة ، واختفيت في مكاني القديم المفضل لأراقب منزل ماسكيو .

وقفت في حيرة ، لا أجرؤ على طرق الباب فربما يتعرف الخدم علي . وبينما كنت آكل قطعة خبز فكرت في كل شيء . وفي الساعة العاشرة نهضت من مكاني ، وسلكت الطريق إلى المنزل . و بالرغم من أنني كنت متأكدا أن أحدا لن يعرفني في هذه الملابس فقد كنت خائفا ووقفت بالباب ، وقرعت الجرس وانتظرت برهة ولما هممت أن أقرع الباب ثانية ، سمعت وقع أقدام مقبلة وصوتا يسأل : « من بالباب ؟ »

أدركت أنه صوت غريس ، وكدت أناديها باسمها ، ولكني أحجمت خوفا من أن يكون هناك شخص آخر موجودا معها ، فأجبت : « أنا غلام مسكين ضل طريقه . »

فتحت غريس الباب ونظرت إلي كمن ينظر لغريب وسألتني : « إلى أين كنت ذاهبا ؟ »

أجبت : « أنا صبي يعمل في مزرعة ، وقد أتيت من بيربك سائرا على قدمي أبحث عن نزل يدعى نزل « واينط » يديره شخص يدعى الزقير بلوك .

فظهرت على وجهها علامات الدهشة ونظرت إلي مدققة النظر مستطلعة ، ثم قالت : « يمكنك أن ترى النزل من هنا إذا صعدت هذه الدرجات القليلة . ولكن النزل أغلقت أبوابه منذ شهرين ، وقد رحل الزقير . »

استدارت نحو السلم وتبعتها . وحين ابتعدنا قليلا عن الباب قلت بصوت خافت : « غريس ! أنا جون ترنشارد ، أتيت لأراك قبل أن أرحل عن مونفليت . هل معك في البيت أحد ؟ »

لو كانت فتاة أخرى غير غريس ، لصرخت من الدهشة . أما هي فقالت بكل هدوء : « لا ياجون ، أنا وحدي . هيا بنا للمنزل . »

وصلنا إلى المنزل و أوصدنا الباب خلفنا ، وتماسكت أيدينا ، وتشابكت نظراتنا . ومرت لحظات حلوة تناجت فيها روحانا .

قالت : « لقد غيرتك الأيام الماضية كثيرا وأصبحت رجلا . » وكانت هي الأخرى قد كبرت وصارت امرأة ناضجة ، تعادلني في ارتفاع القامة ؛ بيد أن المآسي التي عانتها كست وجهها بمسحة من الحزن ، وسلبت جسدها بعض الوزن .

نظرت إلي ونظرت إليها ، ثم أخذتني إلى الحديقة حيث جلسنا متواريين من خلف شجرتين كبيرتين ، وأخبرتني بطريقة الهرب إذا داهمنا خطر .

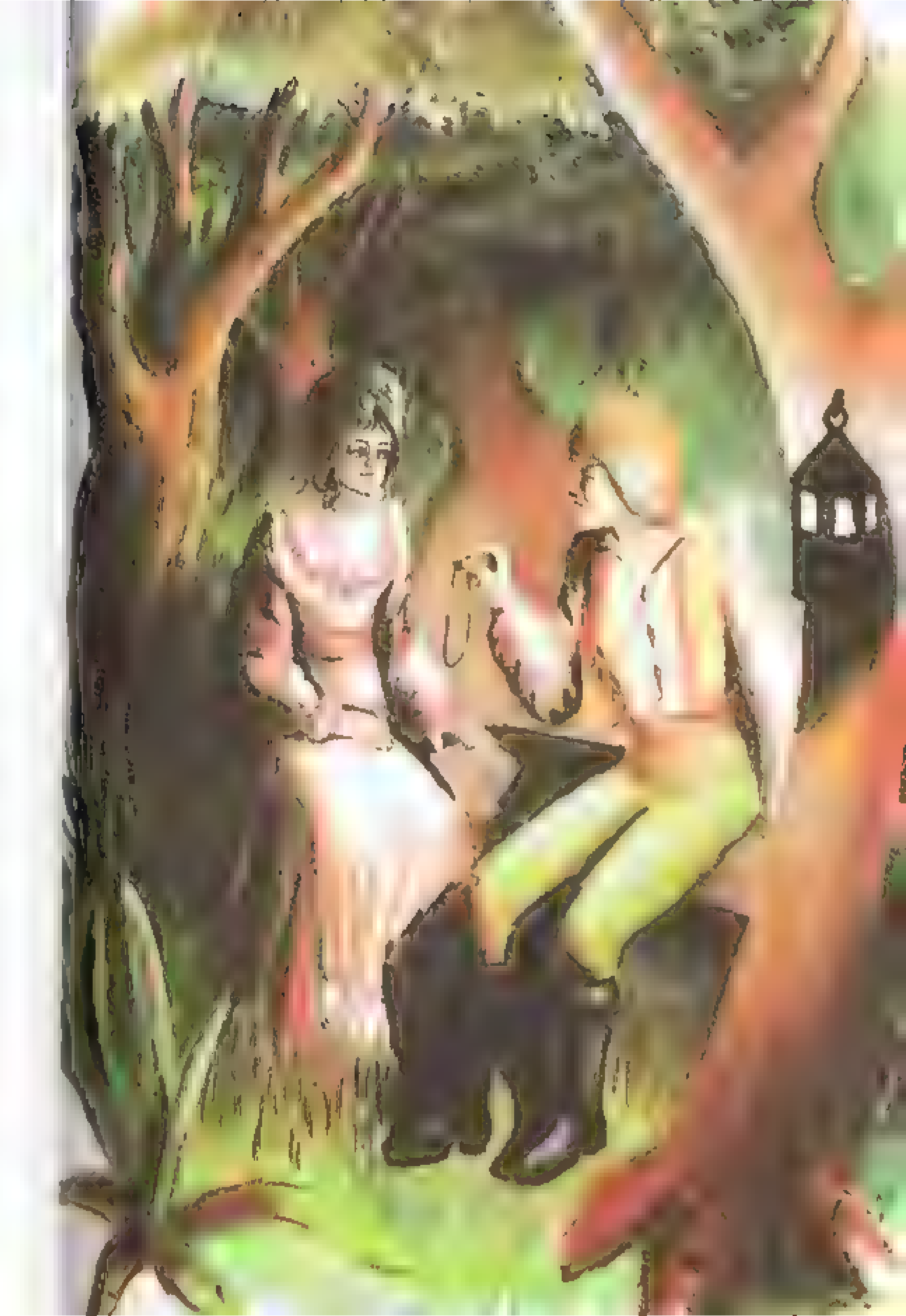
حدَّثتُ غْريس بِكُلِّ ما جرى ، فَبَكَتْ عِنْدَ ذِكْرِ مَصْرَعِ أبيها ، ثُمَّ مَسَحَتْ دُموعها . وتَفَحَّصَتْ ساقِيَ وَ اطْمَأَنَّتْ على شِفائي وحَدَّثْتُها عَنْ عُثوري على العُلْبة الصَّغيرة وعَنْ ورقة ذي اللِّحْيَةِ السَّوْداءِ ، وعَنْ قَراري بالْبَحْثِ عَنِ الماسةِ حَتَّى أجِدَها لِأصْبِحَ مِنْ أثْرى رِجالِ العالَمِ كُلِّهِ .

قالَتْ : « أوَّاهُ ياجُون ! لا تُفَكِّرْ كثيرًا في تِلْكَ الماسةِ . لَقَدْ كانَتْ في حَوْزة رجُلٍ شرِّيرٍ ، وَلَنْ تكونَ سببًا في إسْعادِكَ . فَإذا وَجَدْتَها ، اسْتَخْدِمْها لِمُساعَدةِ الفُقَراءِ وَالمَساكينَ ، وَ إلَّا جَرَّتْ عَلَيْكَ البُؤْسَ أيْضًا . »

ضحكْتُ مِنْ قَوْلها ، فَهِيَ لا تُدْرِكُ أنَّ سعْيي لِامْتِلاكِ الماسة كانَ مِنْ أجْلِ أنْ أُصْبِح ثريًّا لائِقًا بالزَّواجِ بها .

جاءَتْني بِبَعْضِ الخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، وَبَعْدَ تناوُلِ الطَّعامِ تَرَكَتْني لِأسْتَريح وأنام فَقَدْ أخْبَرْتُها بِأنِّي قَضَيْتُ اللَّيْلةَ السّابقةَ ماشِيًا لِلْوُصولِ إلَيْها . وَلَمّا اسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُ غْريس جالسةً بِجانِبي ، وكانَ الجَوُّ أكْثَر بُرودةً وَالظَّلالُ قَدْ غَطَّتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وأزِفَتْ ساعةُ الفِراق .

أعْطَتْني خُبْزًا وَلَحْمًا ولبنًا وقالَتْ : « ياجُون ، ستجوبُ البحارَ ورُبَّما تعودُ إلى مُونْفليت ، ومَهْما انْقَطَعْت عنها فسأظلُّ أضعُ شَمْعتي المُضاءة في النّافذة ، كَما وَعَدْتُكَ مِنْ قَبْلُ . فإذا أتَيْتَ إلى هذه الشَّواطِئِ ورأَيْتَها فاعْلَمْ أنِّي على قَيْدِ الحياة في انْتِظارِكَ ، وإنْ لَمْ تَرَها فَاعْلَمْ أنِّي فارَقْتُ الحياة . سأظَلُّ أُفَكِّرُ فيكَ حَتَّى عَوْدَتِكَ . »



اَلفَصْلُ السَّادِسَ عَشَرَ

في اَلقَلْعَةِ

عُدْتُ إلى اَلكَهْفِ في ساعةٍ مُتَأخِّرةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَكانَتِ اللَّيْلةُ التَّالِيةُ هي ميعادَ وُصُولِ السَّفينةِ بُونافِنْشر . وَعِنْدَما وَصَلَتْ ، أَرْسَلَتْ لَنا قارِبًا يَحْمِلُ عَدَدًا مِنَ الرِّجالِ وَكُنْتُ أَعْرِفُ بَعْضَهُمْ وَشَعَرْتُ وَقْتَها بِأَلَمِ اَلفِراقِ لِتَرْكِ شَواطِئِ دُورْسِت اَلعَزيزةِ وَاَلكَهْفِ الَّذي آواني شَهْرَيْنِ .

وَصَلْنا في اَليَوْمِ التَّالي إلى كاوز وَمِنْها سِرْنا إلى كاريسْبْرُوك ، وَنَزَلْنا في نُزُلٍ بَجِلٍ حَيْثُ تَناوَلْنا طَعامَنا ، ثُمَّ نِمْنا . وَكَمْ نَعِمْتُ بِالنَّوْمِ في فِراشٍ مُريحٍ بَعْدَ مُعاناتي مِنَ النَّوْمِ فَوْقَ الرِّمالِ .

كانَ إلْزِفير يَقْضي مُعْظَمَ اَليَوْمِ في اَلخارِجِ ، أَمَّا أَنا فاعْتَكَفْتُ في غُرْفةٍ خَلْفِيَّةٍ في اَلفُنْدُقِ أَتَصَفَّحُ ما كانَ بِها مِنْ كُتُبٍ .

ذَهَبَ إلْزِفير عِدَّةَ مَرَّاتٍ إلى اَلقَلْعةِ ، وَعَرَفَ أَنَّها كانَتْ تُسْتَعْمَلُ لِسَجْنِ أَسْرى اَلحَرْبِ اَلفَرَنْسِيِّينَ . وَنَشَأَتْ صَداقةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدِ اَلحُرَّاسِ ، فَدَخَلَ بِمُساعَدَتِهِ اَلقَلْعةَ وَتَأَكَّدَ مِنْ وُجودِ اَلبِئْرِ بِها .

وَذاتَ مَساءٍ كُنْتُ جالِسًا في حَديقةِ النُّزُلِ اَلخَلْفِيَّةِ ، وَجاءَ إلْزِفير وَقالَ : « لَقَدْ حاوَلْتُ أَنْ أَجِدَ وَسيلةً نَصِلُ بِها إلى اَلبِئْرِ دُونَ عِلْمِ أَحَدٍ ، فَلَمْ أُوَفَّقْ .

وَهُناكَ حارِسٌ اضْطُرِرْتُ أَنْ أُطْلِعَهُ عَلى قَصْدِنا ، رَغْمَ أَنِّي لا أَثِقُ بِهِ ، وَوَعَدَ بِأَنْ يَسْمَحَ لَنا بِنُزولِ اَلبِئْرِ ، عَلى أَنْ نُعْطِيَهُ ثُلُثَ مِقْدارِ ما سَوْفَ نَجِدُهُ . وَغَدًا في السَّاعةِ السَّادِسةِ صَباحًا سَيَفْتَحُ لَنا بَوَّابةَ اَلقَلْعةِ ، وَسَنَدْخُلُها مُتَنَكِّرَيْنِ في زِيِّ عامِلَيْنِ حَضَرا لِتَرْميمِ جِدارِ اَلبِئْرِ مِنْ داخِلِها . »

في الصَّباحِ التَّالي تَوَجَّهْنا إلى اَلقَلْعةِ وَنَحْنُ نَرْتَدي مَلابِسَ عامِلَيْنِ . وَكانَ اَلمَطَرُ يَهْطِلُ ، فَوَجَدْنا اَلحارِسَ في انْتِظارِنا ، وَفَتَحَ اَلبَوَّابةَ حالَ وُصولِنا قائِلًا : « صَباحَ اَلخَيْرِ . أُدْخُلا لِتَشْرَبا شَيْئًا قَبْلَ اَلبَدْءِ في اَلعَمَلِ . »

شَكَرْناهُ مُعْتَذِرَيْنِ عَنِ الشَّرابِ وَأَبْدَيْنا رَغْبَتَنا في اَلعَمَلِ فَوْرًا .

سارَ الرَّجُلُ وَنَحْنُ نَتْبَعُهُ حَتَّى عَبَرْنا فِناءً فُتِحَ في آخِرِهِ بابًا بِمِفْتاحٍ كانَ يَحْمِلُهُ . وَدَخَلْنا فِناءً أَصْغَرَ أُقيمَ في وَسَطِهِ مَبْنًى خَشَبِيٌّ مُرَبَّعٌ ، ثُمَّ فَتَحَ الرَّجُلُ بابَ هٰذا اَلمَبْنى بِمِفْتاحٍ صَغيرٍ وَبَعْدَ أَنْ دَخَلْناهُ أَغْلَقَ اَلبابَ .

لَمْ تَطْمَئِنَّ نَفْسي إلى ذٰلِكَ الرَّجُلِ . وَقَدْ قيلَ إنَّ اَلجَوْهَرةَ تَجْلِبُ الشَّقاءَ عَلى كُلِّ مَنْ يَمْتَلِكُها ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّ هٰذا الرَّجُلَ سَيَجُرُّ عَلَيْنا اَلمَتاعِبَ بَعْدَ أَنْ نَجِدَها .

كانَ في وَسَطِ اَلبِئْرِ دَلْوٌ كَبيرةٌ مُعَلَّقةٌ ، مَدَّ إلْزِفير يَدَهُ إلَيْها وَسَحَبَها جانِبًا . وَقالَ وَهُوَ يَنْظُرُ إلَيَّ : « سَأَجْلِسُ في هٰذِهِ الدَّلْوِ وَسَيُنْزِلُني هٰذا الرَّجُلُ الطَّيِّبُ داخِلَ اَلبِئْرِ بِرِفْقٍ . وَسَوْفَ أُمْسِكُ بِهٰذا اَلحَبْلِ وَطولُهُ ثَمانونَ قَدَمًا بِالضَّبْطِ ،

وعِنْدما أصِلُ إلى نِهايةِ ٱلحَبْلِ في ٱلبِئْرِ ، سأُنادي علَيْكُما كيْ تتوقَّفا عنِ الاسْتِمْرارِ في إنْزالي . »

لَمْ تُعْجِبْني تِلْكَ ٱلخُطَّةُ ، و شَعَرْتُ بِعَدَمِ ٱلارْتِياحِ لِوُجودي وحْدي مَعَ ذلِكَ الرَّجُلِ فَقُلْتُ : « لا ، لا . دَعْني أنا أهْبِطُ بِالدَّلْوِ فأنا أصْغَرُ مِنْكَ حَجْمًا و أخَفُّ وَزْنًا ، وَتَبْقى أنْتَ هُنا مَعَ هذا السَّيِّدِ وَتُعاوِنُهُ . »

وافَقَ إلْزِقْير . وَلكِنَّ الرَّجُلَ قالَ بِحِدَّةٍ وَغضَبٍ : « الخُطَّةُ الأولى أنْسَبُ بِكَثيرٍ . »

نَظَرْتُ إلى إلْزِقْير مُحاوِلاً أنْ أنْقُلَ إلَيْهِ بِنَظَراتي ما كانَ يَدورُ بِخاطِري ، فَفَهِمَ إلْزِقْير قَصْدي وَوافَقَ على خُطَّتي وَلَمْ يَأْبَهْ بِرَأْيِ الرَّجُلِ .

سَأَلْتُ إلْزِقْير : « هَلْ أنْتَ مُتَأكِّدٌ مِنْ أنَّ ٱلهَواءَ في ٱلبِئْرِ غَيْرُ فاسِدٍ ؟ »

أجابَ : « نَعَمْ . فَقَدْ أنْزَلْتُ شَمْعةً مُشْتَعِلةً في ٱلبِئْرِ أمْسِ ، فَظَلَّتْ تَحْتَرِقُ بِلَهَبٍ وضّاءٍ حَتّى وَصَلَتْ إلى ٱلقاعِ ، وما دامَتِ الشَّمْعةُ تَحْتَرِقُ فَلابُدَّ أنْ يَكونَ ٱلهَواءُ صالِحًا . إلَيْنا بِشَمْعةٍ أيُّها السَّيِّدُ . »

أحْضَرَ الرَّجُلُ شَمْعةً وَثَبَّتَها على قِطْعةِ خَشَبٍ و أنْزَلَها في ٱلبِئْرِ بَعْدَ أنْ أضاءَها ، فَظَلَّ نورُها يَصْغُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتّى أصْبَحَ قَبَسًا ضَعيفًا يَنْبَعِثُ مِنْ نُقْطةٍ . و أخيرًا رأيْتُ الضَّوْءَ يَنْعَكِسُ على ٱلأمْواجِ الصَّغيرةِ الَّتي تَعْلو سَطْحَ ٱلماءِ عِنْدما وصَلَتِ الشَّمْعةُ إلى ٱلقاعِ ، سَحَبَ الرَّجُلُ الشَّمْعةَ ثُمَّ قَذَفَ

حَجَرًا في ٱلبِئْرِ وفي مُنْتَصَفِ ٱلمَسافةِ اصْطَدَمَ ٱلحَجَرُ بِجِدارِ ٱلبِئْرِ و أخَذَ يَتَأَرْجَحُ مِنْ جانِبٍ إلى جانِبٍ مُحْدِثًا صَوْتًا عَميقًا كَصَوْتِ أمْواجِ ٱلبَحْرِ ٱلمُتَكَسِّرةِ على الشّاطِئِ .

صَوَّبَ إلَيَّ الرَّجُلُ نَظْرةً وَ كَأنَّهُ يَقولُ . « هكَذا سيكونُ صَوْتُ سُقوطِكَ »

وسَألَني إلْزِقْير : « أواثِقٌ أنْتَ بِأنَّكَ قادِرٌ على أنْ تَقومَ بِهذِهِ ٱلمُهِمَّةِ ؟ إنِّي أُفَضِّلُ أنْ تَضيعَ جَواهِرُ ٱلعالَمِ بِأسْرِهِ ، على أنْ تَضيعَ أنْتَ ! »

قُلْتُ : « لا تَخَفْ . »

اَلْفَصْلُ السَّابِعَ عَشَرَ

فِي اَلْبِئْرِ

كانَتِ الدَّلْوُ كَبيرةً ، وَكانَ نُزولي بِها بِبُطْءٍ مُريحًا وَرُحْتُ أَتَفَحَّصُ جُدْرانَ اَلْبِئْرِ أَثْناءَ نُزولي مِنْ غَيْرِ أَنْ أَتْرُكَ اَلْحَبْلَ . وَبَدَأَ الضَّوْءُ يَقِلُّ تَدْريجيًّا حَتَّى أَصْبَحَتْ فُوهَةُ اَلْبِئْرِ فَوْقي تَبْدو بَيْضاءَ مُسْتَديرةً كَاَلْقَمَرِ . وَعِنْدَ نِهايَةِ اَلْحَبْلِ ـ وَكُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إِلى عُمْقِ ثَمانينَ قَدَمًا ـ نادَيْتُ عَلَيْهِما كَيْ يَتَوَقَّفا . وَتَطَلَّعْتُ حَوْلي ، فَلَمْ أَجِـدْ شَيْئًا ، فَقَدْ بُنِيَتْ جُدْرانُ اَلْبِئْرِ بِمُكَعَّبـاتٍ صَغيرةٍ مِنَ اَلْحَجَرِ ، وَبَدَتْ كُلُّها مُتَشابِهةً .

نَفِـدَ صَبْرُ الرَّجُلِ وَصَرَخَ فِيَّ : « ماذا تَفْعَلُ ؟ هَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا ؟ هَلْ وَجَدْتَ اَلْمَكانَ ؟ »

قُلْتُ : « لا ، لا أَرى شَيْئًا هُنا . » وَسَأَلْتُ إِلْزِفير : « هَلْ أَنْتَ واثِقٌ أَنَّ طولَ اَلْحَبْلِ يَبْلُغُ ثَمانينَ قَدَمًا ؟ »

وَسَمِعْتُهُمـا يَتَجادَلانِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَتَبَيَّنْ حَديثَهُمـا . ثُمَّ قالَ إِلْزِفير بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ : « يَقولونَ إِنَّهُمْ قاموا بِتَعْلِيَةِ اَلأَرْضِ هُنا ، فَاهْبِطْ وَابْحَثْ عِنْدَ مُسْتَوًى أَعْمَقَ . »

وَبَدَأَتِ الدَّلْوُ تَهْبِطُ بي ثانِيَةً ، وَسَمِعْتُ أَصْواتًا تَنْبَعِثُ مِنْ قاعِ اَلْبِئْرِ ، كَما

لَوْ كانَ اَلْمَوْتَى يَقومونَ بِحِراسةِ اَلْجَوْهَرةِ وَقَدْ أَقْلَقَهُمْ وُجودي .

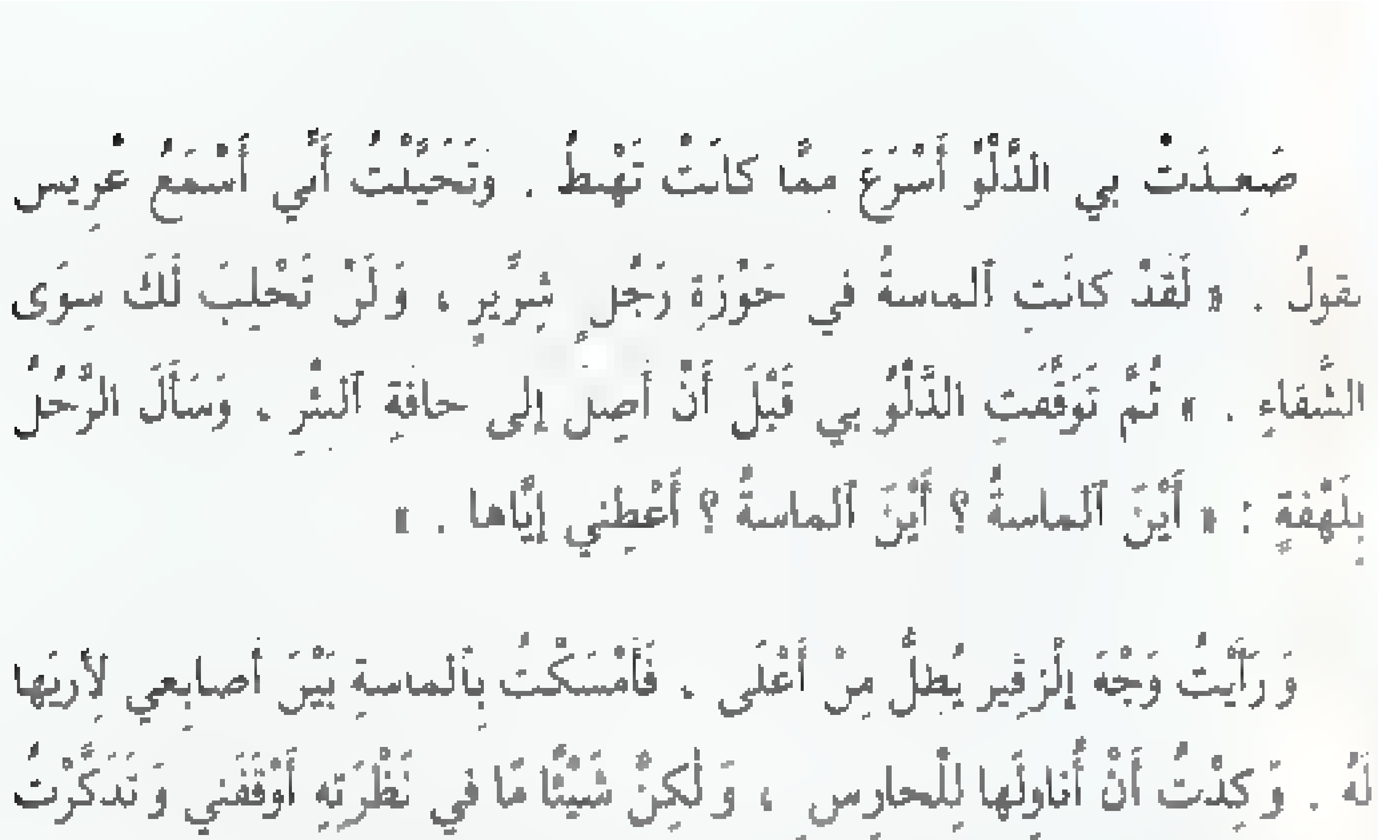
وَبَيْنَما كانَتِ الدَّلْوُ تَهْبِطُ بي لَمَحْتُ حَجَرًا نُقِشَتْ عَلَيْهِ عَلامةُ (Y) ، فَأَيْقَنْتُ أَنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلى غايَتي .

وَمَدَدْتُ يَدي ، وَلٰكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَلْمِسَ اَلْحَجَرَ لِبُعْدي عَنْهُ ، فَطَلَبْتُ سَحْبَ الدَّلْوِ إِلى اَلْجِهةِ اَلْمُقابِلةِ ، وَبَدَأْتُ في إِزالةِ اَلْحَجَرِ . وَكانَ الرَّجُلُ يَصْرُخُ مِنْ أَعْلى قائِلاً : « ماذا تَفْعَلُ ؟ هَلْ وَجَدْتَ شَيْئًا ؟ » وَأَثارَ إِلْحاحُهُ في السُّؤالِ غَضَبي ، وَتَعَجَّبْتُ لِسُكوتِ إِلْزِفير . ثُمَّ أَزَلْتُ اَلْحَجَرَ وَوَضَعْتُ يَدي في الثُّقْبِ الَّذي تَرَكَهُ اَلْحَجَرُ ، فَعَثَرْتُ عَلى كيسٍ صَغيرٍ تَحَسَّسْتُهُ فَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ مُسْتَديرٍ صُلْبٍ بِداخِلِهِ . وَعِنْدَما فَتَحْتُهُ وَجَدْتُ في يَدي اَلْماسةَ اَلْمَنْشودةَ .

لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ في حَياتي مِنْ قَبْلُ ماسةً كَبيرةً أَوْ صَغيرةً . وَلٰكِنِّي كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّ ما بِيَدي لابُدَّ أَنْ يَكونَ أَثْمَنَ ماساتِ اَلْعالَمِ كُلِّهِ وَأَجْمَلَها .

وَعِنْـدَما كانَ نورُ الشَّمْعةِ يَنْعَكِسُ عَلى سَطْحِ اَلْماسةِ كانَتْ تَسْطَعُ مِنْها أَشِعَّةٌ مُلَوَّنةٌ مُتَأَلِّقةٌ تَبْهَرُ النَّظَرَ ، فَوَقَفْتُ أَتَأَمَّلُها وَقَدْ مَرَّتِ اَلأَحْلامُ بِخاطِري : هَلْ سَأُصْبِحُ رَجُلاً ثَرِيًّا وَأَعودُ إِلى مونْفِليت لأَحْظى بِغَريس زَوْجةً لي ؟ وَأَفَقْتُ مِنْ أَحْلامي عَلى صَوْتِ الرَّجُلِ يَقولُ : « أَلَمْ تَجِدْ شَيْئًا بَعْدُ ؟ »

فَصَرَخْتُ فَرِحًا : « بَلى ! بَلى ! لَقَدْ وَجَدْتُها »



صَعِدَتْ بي الدَّلْوُ أَسْرَعَ مِمَّا كانَتْ تَهْبِطُ . وَتَخَيَّلْتُ أَنِّي أَسْمَعُ عُرَيس يَقولُ . « لَقَدْ كانَتِ الماسَةُ في حَوْزَةِ رَجُلٍ شِرِّيرٍ ، وَلَنْ تَجْلِبَ لَكَ سِوَى الشَّقاءِ . » ثُمَّ تَوَقَّفَتِ الدَّلْوُ بي قَبْلَ أَنْ أَصِلَ إِلى حافَةِ البِئْرِ . وَسَأَلَ الرَّجُلُ بِلَهْفَةٍ : « أَيْنَ الماسَةُ ؟ أَيْنَ الماسَةُ ؟ أَعْطِني إِيَّاها . »

وَرَأَيْتُ وَجْهَ الزِّقيرِ يُطِلُّ مِنْ أَعْلَى . فَأَمْسَكْتُ بِالماسَةِ بَيْنَ أَصابِعي لأُرِيَها لَهُ . وَكِدْتُ أَنْ أُناوِلَها لِلْحارِسِ ، وَلٰكِنَّ شَيْئًا ما في نَظْرَتِهِ أَوْقَفَني وَتَذَكَّرْتُ علاءَ الدِّينِ الَّذي رَفَضَ تَسْليمَ المِصْباحِ حَتَّى يَأْمَنَ وُصولَهُ على سَطْحِ الأَرْضِ .

قالَ الرَّجُلُ : « مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تُناوِلَني الماسَةَ الآنَ حَتَّى تَتَمَكَّنَ يَداكَ مِنَ الإِمْساكِ بِالدَّلْوِ . »

قُلْتُ : « لا ، لا . دَعْني أَصْعَدُ أَوَّلاً . »

فَصَرَخَ غاضِبًا : « أَعْطِني الجَوْهَرَةَ . »

فانْتَهَرَهُ الزِّقيرُ قائِلاً : « دَعْهُ يَتَصَرَّفُ كَما يَشاءُ . إِنَّها جَوْهَرَتُهُ يَفْعَلُ بِها ما يُريدُ ، وَسَيَكونُ لَكَ ثُلُثُ المَبْلَغِ الَّذي سَنَحْصُلُ عَلَيْهِ بَعْدَ بَيْعِها ، كَما سَبَقَ أَنْ وَعَدْتُكَ . »

رَدَّ الرَّجُلُ غاضِبًا : « هٰذِهِ الجَوْهَرَةُ لَيْسَتْ مِلْكًا لأَيٍّ مِنْكُما . فَالبِئْرُ بِئْري ، وَلَقَدْ سَمَحْتُ لَكَ بِالهُبوطِ فيها عَلى أَنْ نَقْتَسِمَ ثَمَنَ الجَوْهَرَةِ بَعْدَ بَيْعِها ، أَمَّا

هٰذا الصَّبيُّ فَتَكْفيهِ قِطْعةُ نُقودٍ ذَهَبيَّةٌ . »

رَدَّ الزِّقير غاضِبًا : « لا تَكُنْ غَبِيًّا ، إنَّ هٰذا الصَّبيَّ سَيَأْخُذُ نَصيبَهُ كامِلًا . »

قالَ الرَّجُلُ ساخِرًا : « ها ، ها ! مَنْ مِنّا الغَبِيُّ ؟ أنا أَمْ أَنْتَ ؟ إنّي أَعْرِفُ أَنَّ اسْمَكَ الزِّقير وَأَنَّ هُناكَ مُكافأَةً بِمَبْلَغِ خَمْسينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَقْبِضُ عَلَيْكَ ، وَكَذٰلِكَ مُكافَأَةً بِمَبْلَغِ عِشْرينَ جُنَيْهًا لِمَنْ يَقْبِضُ عَلى الصَّبِيِّ . إنَّكُما سَجينانِ هُنا وَلَنْ تَتْرُكا هٰذِهِ الغُرْفَةَ حَتّى تَكونَ الماسَةُ في قَبْضَةِ يَدي . »

أَخْفَيْتُ الماسَةَ في مَأْمَنٍ داخِلَ مَلابِسي وَعَزَمْتُ أَنْ أُناضِلَ مِنْ أَجْلِها بِكُلِّ ما في وُسْعي .

نَظَرْتُ إلى أَعْلى فَإذا بِالرَّجُلِ يَشْهَرُ مُسَدَّسَهُ ، فَصَرَخْتُ بِالزِّقير مُحَذِّرًا ، فَهَدَّدَهُ الرَّجُلُ قائِلًا : « لَوْ تَحَرَّكْتَ فَسَأُطْلِقُ عَلَيْكَ النّارَ ، وَأَفوزُ بِجائِزَةِ الخَمْسينَ جُنَيْهًا . » ثُمَّ أَطْلَقَ النّارَ .

كانَ الزِّقير واقِفًا عَلى الجانِبِ المُقابِلِ لَهُ مِنَ البِئْرِ . وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الرَّجُلَ لابُدَّ أَنْ يُصيبَهُ لِقُرْبِ المَسافَةِ بَيْنَهُما ، إلّا أَنَّ الرَّصاصَةَ طاشَتْ وَأَصابَتْ جانِبَ البِئْرِ وَنَجا الزِّقير ، وَأَلْقى بِنَفْسِهِ عَلى الرَّجُلِ وَأَحاطَ عُنُقَهُ بِيَدَيْهِ ضاغِطًا عَلَيْهِ . وَكانَ الرَّجُلُ أَصْغَرَ سِنًّا مِنَ الزِّقير ، وَلٰكِنَّ الزِّقير كانَ يَفوقُهُ قُوَّةً وَمَهارَةً .

وَنَشِبَ بَيْنَهُما صِراعٌ رَهيبٌ ، وَكانَ الزِّقير يُناضِلُ نِضالَ الحَياةِ أَوِ المَوْتِ .

وَاسْتَطَعْتُ الخُروجَ مِنَ البِئْرِ بِمَشَقَّةٍ ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّ الزِّقير لَمْ يَعُدْ في حاجَةٍ

لِمُساعَدَتي . فَقَدْ كانَتْ تَلوحُ عَلى وَجْهِ الحارِسِ سِماتُ الإعْياءِ وَالدَّهْشَةِ ، فَقَدْ كانَ يَتَوَقَّعُ فَوْزًا سَهْلًا . فَإذا بِهِ أَمامَ خَصْمٍ جَبّارٍ عَنيدٍ . وَأَمْسَكَ الزِّقير بِهِ وَرَفَعَهُ لِيُلْقِيَهُ عَلى الأَرْضِ وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ طَوَّقَهُ بِذِراعَيْهِ ، مُحاوِلًا أَنْ يَقْبِضَ عَلى عُنُقِهِ بِيَدَيْهِ ، فَدَفَعَهُ الزِّقير عَلى الأَرْضِ فَلَمْ يَسْقُطْ بَلْ تَقَهْقَرَ بِضْعَ خُطواتٍ أَوْصَلَتْهُ إلى حافَةِ البِئْرِ المُبَلَّلَةِ ، فَانْزَلَقَتْ قَدَماهُ وَهَوى بِجَسَدِهِ . وَحاوَلْتُ إنْقاذَهُ مِنَ السُّقوطِ في البِئْرِ فَلَمْ أُفْلِحْ ، إلّا أَنَّ يَدي أَمْسَكَتْ بِالمَفاتيحِ الَّتي كانَتْ مُعَلَّقَةً في جانِبِهِ ، فَبَقِيَتْ في يَدي وَسَقَطَ الرَّجُلُ في البِئْرِ . وَسَمِعْنا صَوْتَ ارْتِطامِ جِسْمِهِ بِالماءِ ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ صَمْتٌ رَهيبٌ .

قَفَزَ الزِّقير بِسُرْعَةٍ في الدَّلْوِ قائِلًا : « ساعِدْني في الهُبوطِ لِأُحاوِلَ إنْقاذَهُ . » فَعَلْتُ ، وَوَقَفْتُ فَوْقَ حافَةِ البِئْرِ أَنْظُرُ مُنْصِتًا إلى أَنْ صَرَخَ يَقولُ : « دَعْني أَصْعَدُ . »

صَعِدَ وَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ ماتَ ، فَقُلْتُ : « دَعْنا نُلْقي بِالماسَةِ وَراءَهُ فَهِيَ لا تَجْلِبُ إلّا المَوْتَ وَالشُّؤْمَ . »

قالَ الزِّقير : « لا ، أَعْطيني إيّاها . إنَّها جَوْهَرَتُكَ وَسَأَحْتَفِظُ بِها لَكَ ، فَلَسْتُ بِحاجَةٍ لِلْمالِ . » وَأَخَذَها مِنّي .

وَصَلْنا إلى النُّزُلِ سالِمَيْنِ ، وَلَمْ نَقُصَّ عَلى صاحِبِ النُّزُلِ ما حَدَثَ ، بَلْ قُلْنا لَهُ إنَّ أَعْمالَنا تُحَتِّمُ عَلَيْنا سُرْعَةَ الرَّحيلِ ، فَأَخْبَرَنا بِوُجودِ سَفينَةٍ هولَنْدِيَّةٍ تُوشِكُ عَلى الإقْلاعِ إلى هولَنْدا .

الفصلُ الثامنَ عشرَ

ضياعُ الماسةِ

أبحرْنا إلى هولندا ، ووصلْنا إلى لاهاي ، وهي خيرُ مكانٍ في العالَمِ لتجارةِ الماسِ . وكانَ الزقير مُلِمًّا ببعضِ كلماتِ اللغةِ الهولنديَّةِ . وبدأَ يطوفُ في المدينةِ بحثًا عن رجلٍ يمكنُهُ شراءُ الماسةِ . وأخيرًا سمعَ عن شخصٍ يُدعى الدوبراند ، من أشهرِ تجّارِ الماسِ وأغناهُم في لاهاي .

ذهبْنا إلى منزلِه ذاتَ مساءٍ ، قبلَ الغروبِ بساعةٍ تقريبًا ، فوجدْنا المنزلَ مكوَّنًا من مبنًى منخفضِ الجدرانِ ، مطليٍّ باللونِ الأبيضِ ، نوافذُهُ خضراءُ ، ولهُ حديقةٌ خلفيَّةٌ ويبعدُ عن الشارعِ قليلًا . ووُضعتْ على واجهتِهِ لافتةٌ تقولُ : « محلُّ تجارةٍ : بيعٌ وشراءٌ للماسِ . »

فتحَ لنا البابَ خادمٌ طويلُ القامةِ قويُّ البنيةِ ، ولمّا علمَ مطلبَنا ذهبَ ليُخبرَ سيِّدَهُ . وبعدَ بضعِ دقائقَ حضرَ الدوبراند نفسُهُ ، وكانَ ضئيلَ الحجمِ في حوالَى السبعينَ من عمرِهِ .

قال : « مرحبًا بكما . سمعتُ أنَّ معكما جوهرةً للبيعِ ، وأنا لا أشتري الجواهرَ العاديَّةَ ، ولا أريدُ أنْ أرى ما معكما إلّا إذا كانَ حقًّا ثمينًا نادرًا . »

كانتِ الماسةُ في يدي فسلَّمتُها لهُ . تغيَّرتْ ملامحُ وجهِهِ عندما أخذَها

وشعرَ بثقلِها ، ثمَّ أمسكَها بينَ أصابعِهِ وقالَ بصوتٍ متهدِّجٍ : « الضوءُ هنا لا يكفي ، تعاليا معي . »

تبعْناهُ إلى غرفةٍ في الطابقِ العلويِّ تُطلُّ نافذتُها على الحديقةِ الخلفيَّةِ ومنها بدتْ أشعَّةُ الشمسِ الغاربةِ .

جلسَ الدوبراند إلى منضدةٍ وأمسكَ بالماسةِ وأخذَ يتفحَّصُها بدقَّةٍ في ضوءِ أشعَّةِ الشمسِ . وكنتُ مواجهًا لهُ ولم أشعرْ نحوَهُ بارتياحٍ ، وفجأةً نظرَ إليَّ قائلًا : « ما اسمُكَ يافتى ، ومن أينَ أتيتَ ؟» وبكلِّ سذاجةٍ أجبتُهُ ،



فَرَكَلَني الزِّقير يُحَذِّرُني وَلٰكِنْ بَعْدَ فَواتِ الأوانِ . وَكَتَبَ الرَّجُلُ اسْمي وَاسْم مونْفِليت ، وَبَدا ذٰلِكَ وَقْتَها شَيْئًا تافِهًا ، وَلَمْ أَدْرِ بِأَنَّ ذٰلِكَ سَيَكونُ نُقْطَةَ تَحَوُّلٍ هامَّةً في مَجْرَى حَياتي ، بَعْدَ ذٰلِكَ .

رَدَّدَ الرَّجُلُ اسْمَ مونْفِليت ثُمَّ سَأَلَ : « وَكَيْفَ حَصَلْتَ عَلى هٰذِهِ الجَوْهَرَةِ ؟» وَأَسْرَعَ الزِّقير يَقولُ : « لَمْ نَحْضُرْ هُنا للاسْتِجْوابِ ، بَلْ لِنَبيعَ الجَوْهَرَةَ ، فَهَلْ تَسْمَحُ وَتُخْبِرُنا بِما تُقَدِّرُهُ ثَمَنًا لَها ، وَكَفاكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّنا إِنْجِليزِيّانِ ، وَأَنَّ هٰذِهِ الماسَةَ مِلْكٌ شَرْعِيٌّ لَنا . »

قالَ الرَّجُلُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ . وَلٰكِنْ يَجِبُ أَنْ أَفْحَصَها جَيِّدًا ، لِأَنّي أَجْهَلُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِها ، فَقَدْ تَكونُ مُزَيَّفَةً . » ثُمَّ صَبَّ عَلَيْها بَعْضَ نُقَطٍ مِنْ سائِلٍ أَخْضَرِ اللَّوْنِ وَحَكَّها بِحَجَرٍ أَسْوَدَ ، وَحينَئِذٍ تَجَمَّدَتْ أَساريرُهُ وَكَأَنَّها قَدْ قُدَّتْ مِنَ الصَّخْرِ .

قالَ : « اسْمَعا ، وَخاصَّةً أَنْتَ يا جون ، يُؤْلِمُني أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ هٰذِهِ الماسَةَ لَيْسَتْ حَقيقِيَّةً بَلْ هِيَ قِطْعَةُ زُجاجٍ صُنِعَتْ بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ ، وَيُمْكِنُني القَوْلُ بِأَنَّها أَفْضَلُ قِطْعَةٍ مُزَيَّفَةٍ رَأَيْتُها . »

آلَمَني أَنْ يَكونَ ما عانَيْناهُ مِنْ مَشاقَّ وَمَتاعِبَ مِنْ أَجْلِ قِطْعَةٍ مِنَ الزُّجاجِ . لَقَدْ ضاعَتْ أَحْلامي بِالسَّعادَةِ وَالثَّراءِ . وَشَعَرْتُ بِخَيْبَةِ أَمَلٍ شَديدَةٍ ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيا في وَجْهي وَكِدْتُ أَسْقُطُ عَلى الأَرْضِ ، فَأَسْرَعَ الرَّجُلُ يَقولُ : « جون ، جون يابُنَيَّ لا تَحْزَنْ هٰكَذا ، إِنَّها قِطْعَةٌ فَنِّيَّةٌ رائِعَةٌ وَسَأُعْطيكَ عَشْرَ قِطَعٍ مِنَ الفِضَّةِ ثَمَنًا لَها . »

قالَ الزِّقير : « لَمْ نَأْتِ إِلَيْكَ نَطْلُبُ فِضَّةً ، فاحْتَفِظْ بِالفِضَّةِ لِنَفْسِكَ ، وَأَمّا هٰذِهِ فَلا نَرْغَبُ فيها أَيْضًا . » وَأَخَذَ الماسَةَ وَأَلْقى بِها مِنَ النّافِذَةِ .

هَبَّ الدوبراند مَذْعورًا ساخِطًا يَقولُ : « يا أَحْمَقُ ، ماذا فَعَلْتَ ؟»

رَأَيْتُ الماسَةَ تَقَعُ في الحَديقَةِ بِالقُرْبِ مِنْ زَهْرَةٍ كَبيرَةٍ حَمْراءَ . وَخَرَجْنا مِنَ المَنْزِلِ مُسْرِعَيْنِ صامِتَيْنِ وَعُدْنا إِلى النُّزُلِ لِتَناوُلِ الطَّعامِ . وَبَيْنَما كُنّا نَأْكُلُ نَهَضْتُ فَجْأَةً وَصِحْتُ في الزِّقير : « إِنَّنا حَقًّا غَبِيّانِ . إِنَّ الجَوْهَرَةَ ماسَةٌ ثَمينَةٌ ، وَلَيْسَتْ مُزَيَّفَةً ، وَقَدْ كَذَبَ عَلَيْنا ذٰلِكَ التّاجِرُ . »

نَظَرَ إِلَيَّ الزِّقير مَلِيًّا ثُمَّ قالَ : « قَدْ تَكونُ عَلى حَقٍّ ، وَلٰكِنْ ما العَمَلُ الآنَ وَقَدْ أَلْقَيْتُ بِالماسَةِ مِنَ النّافِذَةِ ؟»

قُلْتُ . « لَقَدْ رَأَيْتُ المَكانَ الَّذي سَقَطَتْ فيهِ بِالحَديقَةِ . هَيّا بِنا نَسْتَرِدُّها . »

قالَ : « هَلْ تَظُنُّ أَنَّ الدوبراند رَأى ذٰلِكَ أَيْضًا وَعَرَفَ مَكانَها ؟» تَذَكَّرْتُ كَيْفَ أَطَلَّ الدوبراند مِنَ النّافِذَةِ حينَ سَقَطَتِ الماسَةُ ، وَقُلْتُ : « لا أَدْري وَلٰكِنْ دَعْنا نَذْهَبُ إِلى هُناكَ لِنَرى وَنَتَأَكَّدَ . لَقَدْ سَقَطَتْ عِنْدَ ساقِ زَهْرَةٍ حَمْراءَ كَبيرَةٍ . هَيّا بِنا . »

صَمَتَ الزِّقير لَحْظَةً وَقالَ : « أَشْعُرُ بِأَنَّكَ عَلى صَوابٍ ، وَأَنَّ الماسَةَ جَوْهَرَةٌ ثَمينَةٌ ، وَلٰكِنّي أَشْعُرُ بِأَنَّنا سَنَكونُ أَسْعَدَ حَظًّا بِدونِها . فَمُنْذُ عَلِمْتُ بِوُجودِها ، وَنَحْنُ لا نُصادِفُ غَيْرَ المَتاعِبِ . وَها نَحْنُ أُولاءِ غَريبانِ بَعيدانِ

عن وطنها وقد مات رجلان . أفليس من الأفضل أن تتركها حيث سقطت ؟ »
ولكني أردت استرجاع الجوهرة ، وأقنعت الزفير بمشقة أن يذهب معي لاستردادها .

كان الليل متأخرا حين تسلقنا جدار حديقة منزل الدوبراند وأسرعت إلى الزهرة الحمراء ، ولكن الماسة كانت قد اختفت ، فبحثت حول المكان دون جدوى . لقد أخذها الدوبراند . وشخصت ببصري إلى أعلى فإذا بنور ينبعث من نافذته .

تسلقت الحائط إلى النافذة ، وتطلعت إلى الداخل . فرأيت الدوبراند جالسا أمام منضدة وأمامه الماسة . ماستي الثمينة ومعها عدة ماسات أخرى ، ولكنها كانت تفوقها جميعا بهاء وحجما ، وكأنما كانت تناديني وتقول : « أنظر ، ألست أنا ملكة على كل هذه ؟ ألا تأخذني ؟»

وشعرت بيد الزفير تجذبني من ذراعي وهو يقول : « تعال ، تعال . اتركها فلن تجلب لنا سوى الشقاء والمتاعب . هيا بنا يا جون . »

ولكني لم أستمع لكلامه ، وألقيت بنفسي على النافذة فسقطت داخل الحجرة وهب الدوبراند مذعورا ينادي : « النجدة ! النجدة ! لصوص ، لصوص . » فأسرعت إلى المنضدة ووضعت يدي فوق يد التاجر لأمسك الماسة ، وفي اللحظة نفسها أسرع ستة من الخدم بالدخول وأمسكوا بنا .



اَلفَصْلُ التَّاسِعَ عَشَرَ

السِّجْنُ

قُدِّمْنا لِلْمُحاكَمةِ ، وَلَمْ يُصَدِّقِ آلقاضي رِوايَتَنا ، وَلا آلومُهُ على ذلِكَ . وَبَعْدَ أيّامٍ قَليلةٍ أُودِعْنا السِّجْنَ .

مَضَى عَلَيْنا أُسْبوعٌ في السِّجْنِ ، ثُمَّ حَضَرَ آلحارِسُ صَباحَ يَوْمٍ وَأَخَذَني إلى كُوخٍ صَغيرٍ ، وَأَجْلَسَني عَلى كُرْسِيٍّ في وَسَطِ آلكــوخِ ، ثُمَّ أَوْثَقَني بِآلحِبالِ وَأَحْكَمَ رِباطي إلى آلكُرْسيِّ .

رَأَيْتُ في أَرْضِ آلغُرْفَةِ نارًا مُوقَدَةً ، كَما شَمَمْتُ رائحةَ شَيْءٍ كَريهةً فَشَعَرْتُ بِآلخَوْفِ مِمّا قَدْ يَفْعَلونَ بي . وَصَدَقَ شُعوري ، فَقَدْ وَسَموا بِالنّارِ عَلى وَجْهي حَرْفَ ٧ وَهوَ أَوَّلُ حَرْفٍ مِنَ آلكَلِمةِ آلهولَنْديَّةِ الَّتي سُمِّيَ بِها السِّجْنُ . وَكانَتْ كَذلِكَ شِعارَ أُسْرةِ مُوهُــون .

وَبَعْــدَ بِضْعةِ أيّامٍ آلتَقَيْتُ بِآلزِفير ، وَكانَ أَيْضًا يَحْمِلُ آلعَلامةَ نَفْسَها . وَهكَذا تَعاقَبَتِ السُّنونُ ، وَكُلُّ يَوْمٍ مِثْلُ سابِقِهِ : نَخْرُجُ لِلْعَمَلِ وَنَعودُ لِنَأْكُلَ وَنَنامَ وَنَنْسَى .

اَلفَصْلُ آلعِشْرونَ

اَلعاصِــفَةُ

في السَّنةِ آلعاشِرةِ ، حَضَرَ آلحُرّاسُ كَعادَتِهِمْ ، وَاقْتادُونا . إلّا أَنَّهُمْ لَمْ يَسيروا بِنا إلى مَكانِ آلعَمَلِ آلمُعْتادِ ، بَلْ تَقابَلْنا مَعَ فِرْقةٍ مِنَ آلجُنْدِ وَسِرْنا مَعَهُمْ إلى لاهاي . وَهُناكَ عَلِمْنا بِأَنَّنا سَنُبْحِرُ مِنْها إلى جاوَه ، الَّتي تَبْعُدُ آلافَ الكيلو مِتْراتِ عَنِ آلهِنْدِ نَفْسِهـا ، حَيْثُ سَنَعْمَلُ في حُقولِ قَصَبِ السُّكَّرِ لتابِعةِ لِلْحُكومةِ آلهولَنْديَّةِ . وَبِهذا النَّبَإِ انْتَهَتْ أَحْلامي ، فَلَنْ أَسْتَطيعَ بَعْدَ ذلك رُؤْيةَ غْريس أَوِ آلعَوْدةَ إلى مونْفِليت . وَكُنْتُ طوالَ عَشْرِ السِّنينَ آلماضيةِ أَحْلُمُ بِآلفِرارِ ، وَبِأَنّي سَأَكونُ حُرًّا ! وَلكِنْ ذَهَبَتْ كُلُّ هذِهِ آلأَحْلامِ هَبــاءً .

وَأَثْناءَ سَيْري رَأَيْتُ آلزِفير وَقَدِ ابْيَضَّ شَعْرُهُ وَأَصْبَحَ كَهْلًا . وَتَذَكَّرْتُ صورَتَهُ في تِلْكَ اللَّيْلةِ في هُورْهِـدْ وَكَيْفَ كانَ رَجُلًا قَوِيًّا أَسْوَدَ الشَّعْرِ شَديدَ آلعَزْمِ وَآلبَطْشِ ، ثُمَّ تَخَيَّلْتُ غْريس جالِسةً في آلحَديقةِ ، وَصَوْتُها آلحُلْوُ يُحَذِّرُني مِنَ التَّمَسُّكِ بِآلماسةِ الَّتي تَعْتَقِدُ أَنَّها تَجُرُّ مَعَها الشَّقاءَ وَآلمَتاعِبَ ، وَهذا ما حَدَثَ فِعْلًا .

أَخيرًا وَصَلْنــا إلى السَّفينــةِ ، وَكَمْ سَعِدْتُ أَنْ أَرى آلبَحْرَ ثانيةً وَأَتَنَسَّمَ هواءَهُ ؛ وَكَمْ حَزِنْتُ لِفِراقِ شَواطِئِ قارَّتِنا آلمَحْبوبةِ وَالرَّحيلِ إلى أَقاصي العالَمِ .

مرَّ علَيْنا يوْمانِ على ظهْرِ السَّفينةِ وَهبَّتْ عاصِفةٌ هوْجاءُ . وَكانَ بالسَّفينةِ عِشْرونَ سَجينًا آخَرَ ، ولَيْس بَيْنهُمْ بَحّارةٌ غيْرُنا ؛ وَقدْ تملَّكهُمُ الخوْفُ جميعًا ، ولَمْ أُبالِ أنا وَإلْزقير بالعاصِفةِ أوَّلَ الأمْرِ .

اشْتدَّتِ الرِّيحُ ، وَقالَ إلْزقير : « لَقدْ عرَفْتُ سُفُنًا أقْوى وَأمْتن منْ هذهِ السَّفينةِ حَطَّمتْها عواصِفُ أقلُّ حدَّةً مِنْ هذهِ العاصِفةِ . وَأعْتقدُ أنّنا ما زِلْنا قريبينَ مِنَ الشّاطِئ ، وَأرْجو ألّا تدْفعَنا الرِّياحُ إلَيْهِ حتَّى لا نَرْتطِم بصُخورِه . »

وَبيْنما هوَ يتَكلَّمُ ، فُتحَ البابُ وَدخلَ علَيْنا رَجُلٌ لَمْ يكُنْ مِنَ الجُنودِ الَّذين يُحْضِرونَ لَنا الطَّعامَ كالمُعْتادِ ، بلْ كانَ البَحّارَ الوَحيدَ الَّذي بَقيَ على السَّفينةِ ، ثُمَّ ألْقى إلَيْنا بمِفْتاحٍ وَقالَ : « خُذوهُ ، وأسْرِعوا ولْيكُنِ اللهُ في عَوْنكُمْ . »

أدْركَ إلْزقير معْنى ما قالهُ البَحّارُ ، وَأمْسكَ بالمِفْتاحِ قائلًا : « إنَّ السَّفينةَ تغْرَقُ ، وَقدْ أعْطونا الفُرْصةَ لِننْجوَ بأنْفُسنا . » ثُمَّ أطْلقَ سراحَ نفْسه وسراحي وَسراحَ الآخرين ، وكُنْتُ أوَّلَ مَنْ صعدَ معَ إلْزقير إلى ظهْرِ السَّفينةِ وَوَجدْنا أنْفُسَنا معَ بَقيَّةِ السُّجناءِ وحْدنا . أمّا الجُنودُ وَالملّاحونَ فقدْ هجروا السَّفينةَ ورَكِبوا قواربَ صَغيرةً للنَّجاةِ .

أشارَ إلْزقير إلى شيْءٍ ، وصرخَ في أُذني حتَّى أسْمعَ صوْتَهُ وسْط صخَبِ العاصِفةِ : « نَحْنُ قريبونَ مِنَ الشّاطِئ . »

وَمرَّتْ مَوْجةٌ قويَّةٌ قذَفتْ بنا نَحْوَ الشّاطِئ ورأيْتُ تلًّا يعْلو في السَّماء

ذكَّرني بمَشْهدٍ رأيْتهُ مِنْ قبْلُ . لقدْ كنّا في خليجٍ ، وَكُنْتُ أرى شاطِئَ ذلكَ الخليجِ حيْثُ تلْتقي الأمْواجُ بالصُّخورِ .

غمَزني إلْزقير في يدي صائحًا : « انْظُرْ . » ، فنظَرْتُ وَأدْركْتُ أنّنا في خليجِ مونْفليت ، وَرأيْتُ وَجْهَ إلْزقير يتَهلَّلُ فرَحًا وَسَمِعْتُهُ يقولُ : « يا للسَّماءِ ! إنَّ رَحْمةَ اللهِ الواسِعةَ قدْ أدْركَتْنا ، وَأعادتْنا إلى أوْطانِنا . إنّي أُفضِّلُ المَوْتَ هُنا في خَليجِ مونْفليت ، على أنْ أعودَ لِحياةِ السُّجونِ . وَإذا كانَ المَوْتُ سَيُدْرِكُنا لا مَحالةَ فلَيْسَ معْنى ذلِكَ أنْ نَسْتَسْلِمَ ، ولَكِنْ دَعْنا نُناضِلْ مِنْ أجْلِ الحَياةِ . »

وَقفَ باقي السُّجَناءِ يرْتعِدونَ هلَعًا ، وَسجدَ بعْضُهُمْ توَسُّلًا لإلْزقير أنْ يُساعِدَهُمْ ، في إنْزالِ القاربِ الوَحيدِ المُتبَقّي بالسَّفينةِ ، فقالَ إلْزقير بصَوْتٍ عالٍ لِيَسْمَعَ الرِّجالُ وَسْطَ زَمْجرةِ الأمْواجِ : « إخْواني ! صَدِّقوني ، إنَّ أيَّ شخْصٍ يُخاطِرُ بنَفْسِهِ وَينْزِلُ البَحْرَ في ذلكَ القاربِ هالِكٌ لا مَحالةَ . فإنّي أعْرِفُ طبيعةَ هذا الخليجِ ، وَإذا أرَدْتُمُ الحَياةَ فابْقوا على ظهْرِ السَّفينةِ . ففي خِلالِ نِصْفِ ساعةٍ سَنقْترِبُ مِنَ الشّاطِئ ، ومِنْ ثَمَّ ستَكونُ لِكُلِّ رَجُلٍ فُرْصتُهُ في إنْقاذِ نفْسِه . »

لَمْ يَعْبَأِ الرِّجالُ بتَحْذيرِه وَأخَذوا القاربَ ، وَنزَلوا البَحْرَ وَبقينا نَحْنُ الاثْنَيْنِ وَحْدَنا على ظَهْرِ السَّفينةِ . وَكانَ إلْزقير يَقودُها نَحْوَ الشّاطِئ . وَعِنْدما اقْترَبْنا مِنَ السّاحِلِ ارْتفَعَ صَوْتُ المَوْجِ وَهوَ يَرْتَطِمُ بالصَّخْرِ ، وَكثيرًا ما سَمِعْتُ ذلِكَ الصَّوْتَ مِنْ قبْلُ ؛ فكَمْ مِنْ لَيْلةٍ قضَيْتُها في بَيْتِ خالَتي وَأنا أسْمَعُهُ !



وَمَرَّتْ في مُخَيِّلَتي أَحْداثُ تِلْكَ اللَّيْلةِ الَّتي وَقَفَ فيها راتْسي وَ رِفاقُهُ يُراقِبونَ سَفينةً تُحَطِّمُها ٱلأَمْواجُ ، وَهُمْ لا يَقْدِرونَ عَلى نَجْدَتِها ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ إِلْزِقير يَصْرُخُ . « أُنْظُرْ ! أُنْظُرْ . هُناكَ ضَوْءٌ يَتَلأْلأُ خِلالَ الظَّلامِ وَ ٱلأَمْطارِ . » وَرَأَيْتُ ضَوْءًا ، ضَوْءًا يَتَلأْلأُ كَجَوْهَرَةٍ .

قالَ إِلْزِقير : « هٰذِهِ مَنارةُ ماسْكيو » فَأَدْرَكْتُ أَنَّ غْريس لا تَزالُ عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ وَ أَنَّها حافَظَتْ عَلى وَعْدِها ، وَ ما زالَتْ تَتَرَقَّبُ عَوْدَتي ، وَأَنِّي في الطَّريقِ إِلَيْها ، وَلٰكِنَّهُ طَريقٌ مَحْفوفٌ بِالمَخاطِرِ ، يُهَدِّدُ بِٱلمَوْتِ !

إِقْتَرَبْنا جِدًّا مِنَ السّاحِلِ وَ ما زالَتِ ٱلأَمْواجُ تَعْلو وتُزَمْجِرُ فَوْقَنا . وَرَأَيْنا عَلى السّاحِلِ نورًا أَزْرَقَ ؛ فَقَدْ كانَ النّاسُ يَسْتَعِدّونَ لِتَقْديمِ النَّجْدةِ ، وَلٰكِنَّنا لَمْ نَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُمْ بِوُضوحٍ وَقَفوا يُراقِبونَ السَّفينةَ وَلا يَعْلَمونَ أَنَّها تَحْمِلُ شَخْصَيْنِ فَقَطْ ، وَ أَنَّ الشَّخْصَيْنِ مِنْ أَبْناءِ بَلْدَتِهِمْ مونْفليت .

أَدارَ إِلْزِقير دَفَّةَ السَّفينةِ نَحْوَ النّورِ ٱلأَزْرَقِ ، وَعِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ الشّاطِئِ امْتَزَجَ صَوْتُ الرِّياحِ الصّاخِبةِ بِصَوْتِ ٱلأَمْواجِ ٱلمُرْتَطِمةِ بِالصُّخورِ ، وَأَحْدَثا ضَجَّةً رَهيبةً

قالَ إِلْزِقير : « اسْتَعِدَّ ! » فَأَمْسَكْتُ بِشَيْءٍ مّا وَجَدْتُهُ قَريبًا مِنّي ، وَغَطَّتِ ٱلأَمْواجُ ظَهْرَ السَّفينةِ الَّتي أَخَذَتْ تَتَحَطَّمُ قِطْعةً بَعْدَ قِطْعةٍ ، ثُمَّ قالَ إِلْزِقير : « يَجِبُ أَنْ نَتْرُكَ السَّفينةَ بَعْدَ ٱلمَوْجةِ ٱلكَبيرةِ ٱلمُقْبِلةِ . أُنْظُرْ إِلَيَّ ، وَعِنْدَما

أَقْفِزْ ، اقْفِزْ أَنْتَ أَيْضًا ، وَلْيَحْفَظْنا اللّهُ . » وَشَدَّ عَلى يَدي ، وَوَقَفْنا جَنْبًا إلى جَنْبٍ نَنْظُرُ ، وَقَدْ بَدا آلماءُ بَيْنَنا وَبَيْنَ السّاحِلِ كُتْلَةً بَيْضاءَ تَفورُ وَتَغْلي .

قَفَزْنا ، فَوَقَعْتُ على يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ في بُقْعَةٍ بَلَغَ عُمْقُ آلمِياهِ فيها مِقْدارَ مِتْرٍ . وَعِنْدَما وَقَفْتُ رَأَيْتُ صَفًّا مِنَ الرِّجالِ مُتَشابِكي آلأَيْدي يُحاوِلونَ آلوُصولَ إِلَيَّ . وَسَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَصْرُخُ ، وَكانَ إِلْزِقير بِجانِبي فَتَقَدَّمْنا إِلَيْهِمْ مَعًا وَأَيْدينا مَمْدودَةٌ إِلى مَنْ أَرادوا مُساعَدَتَنا . وَحينَئِذٍ دَفَعَتْني مَوْجَةٌ مِنَ آلخَلْفِ فَسَقَطْتُ وَلكِنَّني تَعَلَّقْتُ بِقِطْعَةِ خَشَبٍ عائِمَةٍ ، وَأَقْبَلَ إِلْزِقير وَساعَدَني عَلى النُّهوضِ

دَوَّى صَوْتُ آلأَمْواجِ في أُذُني ، وَسَمِعْتُ صُراخَ الواقِفينَ عَلى الشّاطِئِ ، ثُمَّ شَعَرْتُ بِمَنْ يُمْسِكُ بِيَدي .

اَلفَصْلُ الحادِي وَ آلعِشْرونَ

اَلْبَيْـــتُ

مضتْ عِدَّةُ ساعاتٍ وأنا غارِقٌ في نَوْمٍ عميقٍ ولا أَدْري بما حَوْلي ، وعندما اسْتَيْقَظْتُ وجدْتُني راقِدًا فَوْقَ فِراشٍ قَريبٍ مِن آلمِدْفأة ورأيْتُ رجُلَيْن جالسيْن بِآلقُرْبِ مِنَ آلمِنْضَدة . وسمِعْتُ أَحدَهُما يقولُ : « لقد اسْتَيْقَظ ، وسوف يعيشُ ويُخْبِرُنا بقصَّته أعْطه شرابًا ساخنًا . فاللَّيْلةُ باردةٌ جدًّا . أَتَعْلَمُ أنّي لَمْ أطأْ عتبة هذا النُّزُل مُنْذُ تركَهُ إلْزقير ، أيْ مِنْ حوالَى عَشْر سنواتٍ ؟ »

صرَخْتُ : « أيْن هو ؟ » وجلَسْتُ وجعلْتُ أتلفَّتُ حوْلي علَّهُ يكونُ نائمًا بِآلقُرْبِ مِنّي .

قالَ الرَّجُلُ : « هدِّئْ رَوْعَك يا هذا ، وعُدْ إلى الرُّقادِ والنَّوْمِ . » ثُمَّ استدارَ إلى الرَّجُلِ آلآخَرِ وقالَ : « إنَّهُ يَهْذي . »

قُلْتُ : « كلّا ، أنا لا أهْذي ! أنا في كاملِ وَعْيي ، وأُريدُ أنْ أعْرِفَ أيْنَ إلْزقير بْلوك ؟ »

تبادَلَ الرَّجُلانِ النَّظَراتِ ونَهَضَ أحدُهُما وأقْبَلَ نَحْوي عِنْدَما نَطَقْتُ اسْمَ إلْزقير بْلوك ، وعَرَفْتُ أنَّهُ راتْسي .

سَأَلَني : « مَنْ أَنْتَ ؟ هَلْ تَعْرِفُ إِلْزِقير بْلُوك ؟ »

قُلْتُ : « أَلا تَعْرِفُني يا راتْسي ؟ إِنِّي أَتَذَكَّرُكَ رَغْمَ أَنِّي تَرَكْتُ هٰذِهِ ٱلْبِقاعَ مُنْذُ أَمَدٍ طَويلٍ . بِرَبِّكَ أَخْبِرْني أَيْنَ إِلْزِقير ؟ »

أَمْسَكَ راتْسي بِيَدَيَّ وَ انْهالَ عَلَيَّ بِٱلأَسْئِلَةِ : « أَيْنَ وَمَتى وَكَيْفَ ؟ »

وَلٰكِنِّي قُلْتُ : « قَبْلَ أَنْ أَقولَ أَيَّ شَيْءٍ ، قُلْ لي أَنْتَ أَيْنَ إِلْزِقير . »

قالَ : « لا أَعْلَمُ . »

قُلْتُ : « كَيْفَ لا تَعْلَمُ وَقَدْ كانَ مَعي ، وَهوَ الَّذي أَنْقَذَني ووَصَلَ مَعي إِلى الشَّاطِئِ ؟ »

عَلَتْ وَجْهَهُ الدَّهْشَةُ وَقالَ : « ماذا تَقولُ ! لَمْ يَنْجُ مِنَ السَّفينَةِ أَحَدٌ غَيْرُكَ ، وَكُنْتَ وَحْدَكَ عِنْدَما قَذَفَتْ بِكَ ٱلأَمْواجُ إِلى الشَّاطِئِ . »

عُثِرَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ عَلى جُثَّةِ إِلْزِقير عَلى الشَّاطِئِ ، فَنَقَلوها إِلى النُّزُلِ وَوَضَعوها فَوْقَ ٱلْمِنْضَدَةِ نَفْسِها الَّتي وُضِعَتْ فَوْقَها جُثَّةُ ابْنِهِ . وَوَقَفَ الرِّجالُ حَوْلَهُ صامِتينَ ، ثُمَّ انْصَرَفوا واحِدًا بَعْدَ الآخَرِ . وَكانَ راتْسي آخِرَ مَنْ ذَهَبَ . وَبَقيتُ وَحْدي مَعَ صَديقي وَهُمومي وَأَحْزاني .

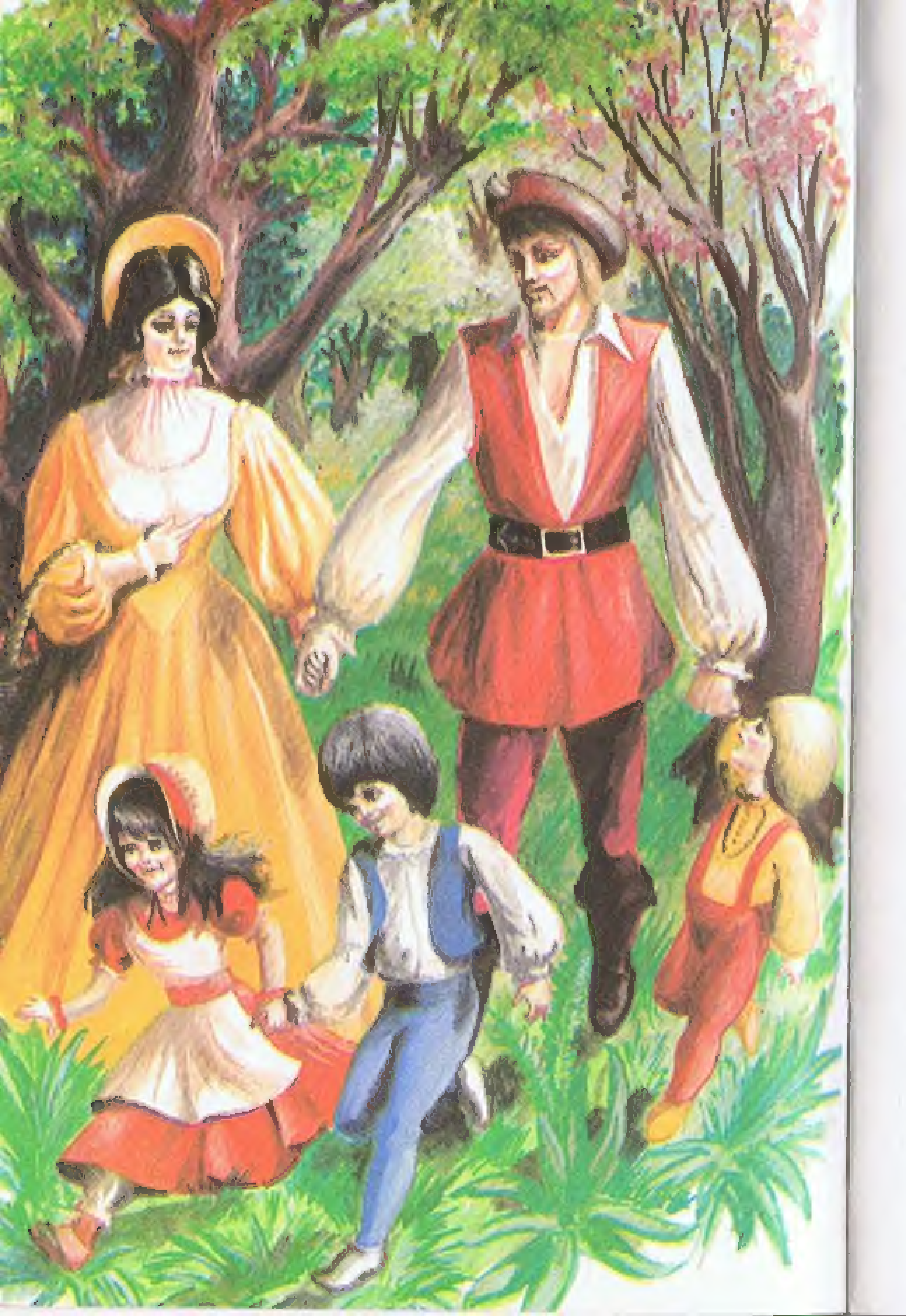
كانَتِ الغُرْفَةُ مُغَطَّاةً بِالتُّرابِ لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يَطْرُقْها مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ الَّذي

سَقَطَ فيهِ الدَّبُّوسُ . كَما كانَتْ آثارُ الشَّمْعِ لا تَزالُ باقِيَةً عَلى ٱلْمِنْضَدَةِ . وَجَلَسْتُ بِجانِبِ ٱلْمِدْفَأَةِ غارِقًا في بَحْرٍ مِنَ ٱلأَفْكارِ ، وَلٰكِنِّي شَعَرْتُ بِلَمْسَةٍ خَفيفَةٍ ، عَلى ذِراعي ، فَظَنَنْتُ أَنَّ راتْسي قَدْ عادَ ، وَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ فَإِذا بي أَرى شابَّةً جَميلَةً فارِعَةَ ٱلْقَوامِ واقِفَةً أَمامي تَقولُ : « جُون ، جُون ! أَلا تَتَذَكَّرُني ؟ أَلَمْ تَرَ الشَّمْعَةَ ٱلْمُضاءَةَ ؟ أَلَمْ تَتَذَكَّرْ أَنَّ لَكَ في هٰذِهِ الدِّيارِ صَديقَةً تَنْتَظِرُكَ ؟ »

تَناوَلْتُ يَدَها قائِلًا : « عَزيزَتي غْرِيس ! لَمْ أَنْسَ شَيْئًا ، وَما زِلْتُ أُكِنُّ لَكِ كُلَّ حُبٍّ وَإِجْلالٍ . وَلٰكِنْ وا أَسَفاه لَيْسَ هٰذا بِمَكانٍ يَسْمَحُ لي أَنْ أَتَكَلَّمَ عَنِ الحُبِّ فَأَنْتِ سَيِّدَةٌ كَريمَةٌ ، وَأَنا سَجينٌ أَحْمِلُ وَصْمَةَ عارِ السِّجْنِ . » وَأَشَرْتُ إِلى ٱلعَلامَةِ الَّتي في وَجْهي .

قالَتْ . « لا تَتَكَلَّمْ عَنِ الثَّراءِ ، فَالرِّجالُ لا يَصْنَعُهُمُ الذَّهَبُ أَوِ ٱلجَواهِرُ . لَقَدْ عُدْتَ ثَرِيًّا بِٱلأَخْلاقِ وَالشَّرَفِ . »

وَجَلَسْنا مَعًا بِجانِبِ ٱلْمَوْقِدِ نَتَحَدَّثُ . وَكُنْتُ أَتَعَجَّبُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ الَّتي اتَّسَعَ قَلْبُها ٱلْكَبيرُ لِحُبِّ رَجُلٍ حَقيرٍ مِثْلي .



اَلْفَصْلُ الثَّاني وَ آلعِشْرون

اَلخاتِمــــةُ

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ آلقَليلِ مِنَ آلحَديثِ عَنِ آلماسةِ وَمَصيرِها . فَقَدْ وَصَلني ، ذاتَ يَوْمٍ ، خِطابٌ مِنْ أَحَدِ آلمُحامينَ في لاهـاي يَقولُ إنَّ تاجرًا يُدْعَى ألـدوبراند أوْصَى لي بِثَرْوَتِهِ بَعْدَ مَماتِهِ ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَرَثَةٌ ، وَقالَ في وَصيَّتِهِ إنَّهُ أَرادَ أَنْ يَرُدَّ ، لِجُون تْرِنْشارد مِنْ مونْفِليت ، مالاً حَصَلَ عَلَيْهِ عَنْ طَريقِ آلكَذِبِ وَآلخِداعِ ، فَقَدِ آبْتاعَ مِنْهُ ماسةً وَلَمْ يُعْطِهِ ثَمَنَها آلحَقيقيَّ ، وَأَكَّدَ أَنَّ سُوءَ آلحَظِّ لازَمَهُ بَعْدَ آلحُصولِ عَلى آلماسةِ ، وَعَزا ذلِكَ إلى آلخُدْعةِ الَّتي ارْتَكَبَهـا . وَقَدْ أَرادَ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْ ذَنْبِهِ ، وَيُعيدَ آلحَقَّ إلى صاحِبِهِ ، بَعْدَ مَوْتِهِ .

وَهكَذا اسْتَرْدَدْتُ ثَمَنَ آلماسةِ ، وَكَما نَصَحَتْني غْريس أَنْفَقْنا كُلَّ ما وَصَلَ إلَيْنا مِنْ مالٍ في سَبيلِ آلبِرِّ وَآلإحْسانِ .

وَكُنَّا نَتَنَزَّهُ أَحْيانًا في آلغابةِ ، أنا وَزَوْجَتي غْريس وَحَوْلَنا أَطْفالُنا الصِّغارُ : جُون ، وغْريس ، وإلْزِفير . وَفي وَقْتِ آلغُروبِ كانَتْ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ تَقَعُ عَلى التِّلالِ آلمُحيطةِ بِنا ، فَتَكْسُوها بِحُلَّةٍ ذَهَبيَّةٍ حَمْراءَ ، وَعِنْدَما يَأْتي اللَّيْلُ بِخُطواتِـهِ الصَّامِتةِ وَيَنْشُرُ ظِلالَهُ عَلى آلمَزارعِ وَآلحُقولِ آلخَضْراءِ . كانَ يَنْبَعِثُ مِنَ آلبَحْرِ صَوْتُ آلأَمْواجِ يُعْلِنُ أَنَّها دائِمًا مُتَقَلِّبةٌ ، دائِمًا باقِيَــةٌ .



الروايات المشهورة

١ ـ جين إير
٢ ـ فرانكنشتاين
٣ ـ مونفليت
٤ ـ دراكولا
٥ ـ لورنا دون
٦ ـ دكتور جيكل ومستر هايد



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 103


ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net